عمر بكر المرعي

حكايات و بطولات من

الجولان

دارت أحداثها في الجولان، حول بحيرة طبرية
قبل عام ١٩٦٧
مع وصف لبعض صور الحياة فيها

الطبعة الأولى

2008 - 1428

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب 31426 هاتف 2248433 فاكس 2248432
e-mail: almaktabi@mail.sy

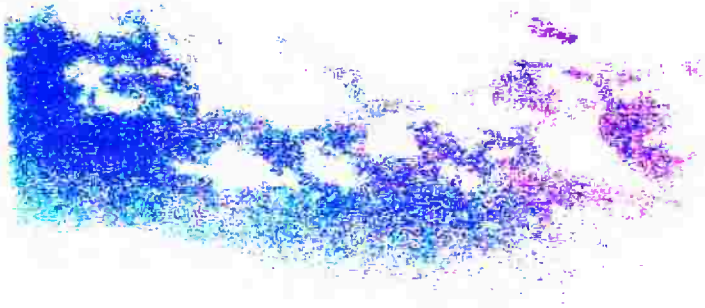

(مقدمة)

قِصَصٌ حَدَثَتْ عِنْدَ بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّة الَّتي تَقَعُ عَلىٰ الحدودِ الجنوبيةِ الغربيةِ من هضبةِ الجولانِ السُّوريَّة في زاويةٍ بين سورية وفلسطين والأردن بمساحةِ (١٦٥) كم وبطولٍ من الشمالِ إلىٰ الجنوبِ يمتدُ لأكثرَ من (٢٢) كم وعرض بامتداد (١٢) كم تقريباً في بَعْضِ أَبْعَادِها، وهي بَيضَويّةُ الشَّكلِ يدخلُ إليها نهرُ الأردن وَيُغَذّيها ويَخْرُجُ منها إلى الغَوْرِ. كما يَصُبُّ فيها نهرُ اليَرموك وَوَادي الرَّقادِ، وَوَادي السَّمَكِ. ونُقَيب وأَودية البُطَيحة، والدير عزيز، ووادي حَوّا، وقد أقام عليها المحتلون الإسرائيليون مُنْشَآتٍ سِياحيةً هامةً يَسْتَقْطِبُونَ إِليها سُيَّاح أمريكا وأوروبا ومن بلادٍ أُخرىٰ، وتُعْتَبَرُ المخزنَ الرئيس للمياه حيث أَقامت عليها إسرائيل الكثيرَ من المشاريعِ الزراعيةِ والسياحيةِ والصناعيةِ، وعِنْدَ مدينة (سَمَخ) أَقامتْ محطَّةَ توليد كهربائية (مشروع روتنبرغ) وعلى شاطئِها الغربي تقومُ مدينةُ (طَبَريّة) تلك المدينةُ العربيةُ الَّتي قاومت الغزوات علىٰ الوطن العربي كالغَزْوِ الصَّليبيّ حيثُ قضىٰ عليه الجيش العربيُّ في معركةِ حطّين بقيادة البطل صلاح الدين الأيوبي، وكما رَدَّتْ

وَصَمَدَتْ أَمامَ غزواتِ التَّتَارِ والصَّليبين والمستعمرين الجدد من غُلاةِ الصَّهاينة المعتدين.

وتُعْتَبَرُ الجولانُ المصدرَ الرئيس للمياهِ الواردةِ إلىٰ البحيرةِ، وَبُنِيَ عليها العديدُ من المنشآتِ والمشاريعِ الزراعيةِ والسياحيةِ، ومنها جُرَّتْ قناةٌ تَصِلُ حتىٰ سهول النَّقَب بطولِ أكثر من (٣٠٠) كم، بمياه مَصْدَرُها ينابيعُ الجولان وتعيش فيها الأسماكُ المُتَنَوِّعَةُ الّتي تُزَوِّدُ المنطقةَ وكانت تُصَدِّرُ إلىٰ دمشق وغيرها من المدنِ السُّوريّة والّتي يَصِيدُها سكانُ أَهلِ (البطيحة) في عدةِ قرىٰ عربيةٍ سوريّةٍ في القسمِ الشرقي الشمالي منها وعلىٰ شاطئٍ يَصِلُ طوله حوالي (١٠) كم، وكانت من مُمْتَلَكاتَ أَحدِ الإقطاعيين المستَغِلِّين لخيراتها وَجُهْدِ سُكَّانِها حتىٰ طُبِّقَ عليها قانون الإصلاح الزراعي بِعَهْدِ الوحدةِ وتطورت القوانينُ وزَادَت إِسْهَامات الحكومةِ السُّوريّة في النهوضِ بالمنطقةِ بعد ثورةِ الثامنِ من آذار المجيدة.

وكان السُّكان يَسْقُونَ حقولَهم ومَزَارعَهمُ من ماءِ البُحيرة ونَهرِ الأُرْدُنِّ (الشَّريعة)، ويصيدونَ الأسماكَ الطَّازجة الشَّهية، والبحيرةُ مشهورةٌ بسمكِ المُشْطِ، وسكانُ البطيحة في القرىٰ العشرة المنتشرة فيها بَحَّارة مَهَرَةٌ وشجعانٌ لا يرهبون الزَّوارقَ الحربيةِ المسلحةِ للعدوِ الصهيوني الّتي كانت تلاحقهم لِمَنْعِهم من كسبِ قوتِ عيالهم في مياه

عربيةٍ سورية وعلىٰ شاطئٍ سوري.

ومن البطيحة تُصَدَّرُ بَواكيرُ الخضارِ والفواكهِ إلىٰ دمشق وغيرِها قَبْلَ احتلالِها عام (١٩٦٧) م.

وعلىٰ شاطِئِها الجميل تتدفقُ مياهٌ معدنيةٌ كبريتيَّة فيها شِفَاءٌ لكثيرٍ من الأمراضِ والعِللِ ومن هذه الحماماتِ الكثيرة المشهورة، ينابيعِ الحِمَّة السّورية وينابيع حِمَّة طبرية في فلسطين علىٰ شاطِئِها الغربي جنوبي المدينة.

وتُشْرِفُ علىٰ البُحيرة من الجهةِ الشرقيةِ، جبالُ الجولان العالية المُنْتَصِبَة كالقَدْرِ فوقَ رؤوسِ المُحْتَلِّين الصهاينة.

ويسكن هضبةُ الجولان مُنْذُ القِدم سكانٌ عربٌ صامدون وقد انْتَظَموا في كَتَائِبِ الحرسِ الوطني والمقاومة الشعبية وحملوا السِّلاحَ في وجه المحتلين جنباً إلىٰ جنبٍ مع الجيشِ العربي السوريِّ الّذي كان يُذِيقُهُم الأَمَرّين أثناء المواجهات اليومية الّتي كانت مستمرةً ضِدَّ أطماعِ المعتدين في الأرض والمياه العربية من نهر الشريعة وبحيرة طبرية والروافد الّتي تصب فيها.

وكثيراً ما تُغِيرُ الطائرات العدوةُ علىٰ قرىٰ الجولان شرقَ البحيرة وتخلّفُ الدمار والقتلىٰ والجرحىٰ، كما حدث في قرية (شكوفيا) في نيسان (١٩٦٧) م.

غيرَ أنَّ المواقعَ العربية السورية المشرفة علىٰ البحيرة في الجبهة كانت تَدُكُّ مَواقعَ العَدو في هذه المعارك بسببِ اِرتِفاعِ مَرَابِضِها وَدِقَّةِ تَصْويبها وشجاعةِ سَدَنَتِها، وهي رابضَةٌ في مواقعها في التَّوافِيق وَعَيُون وكَفَرْ حَارب وَفيق وَسْكوفيا وَشُكُوم وعَمْرَةِ الفِريحِ وَدَيرِ عَزيز والشّيخ علي وبَابَ الهَوا.

وقد قَصَدتُ مِن كِتابة هذه الأقاصيص الّتي تَحْكي بعضَ صُوَرِ الحياة فيها وكانت سَائِدةً قبل نكسة حزيران (١٩٦٧)، ليتعرف عليها النَّاشِئَةُ كما وَصَفْتُ شَخْصَيَّاتٍ مَحَلِّيّةٍ عَمَّروها بالخيرِ والعطاءِ، ورويتُ قَصصَ مَعَارك وَبُطولاتٍ دارت أَحدَاثُها علىٰ الأرضِ العربيةِ في الجولان شرق هذه البحيرة، وأظهرتُ مدىٰ شجاعةِ وتضحيةِ المُقَاتِلِ العربيّ ضدَّ الغزاةِ الصَّهاينة الطَّامعينَ بخيراتنا وأراضينا.

وصف

أُفقٌ بعيدةٌ، سماءٌ زرقاءُ، أرضٌ واسعةٌ وخُضْرَةٌ تُبْهِرُ الأَنظارَ. جبالٌ هنا وهناك كَهَامَاتَ جَبابِرَةٍ عِظام، وغاباتِ شجرٍ مَصْفُوفٍ زيتونٌ يكادُ زيتُهُ يَقْطِرُ منه، ونَسائِمُ تُهَفْهِفُ على الدَّنيا في طَيَّاتِها رَوائحُ طيبة وعطرُ من أَزاهيرَ شتىٰ بألوانها المُبْهِرَةِ.

سَاقيةُ ماءٍ رَقْرَاقٍ من حولك يُدَغْدِغُ أَطرافَ قَدَميك مُتَّجِهَةً صَوبَ الوادي لِتَأْوي أَسماكَ المِشْطِ المُطَرَّزِ بأَلوانِ الفضَّةِ في وسطِ مياهِ العدرانِ.

لن تذهب من مُخَيِّلَتي يوماً، بل هي تعيشُ معي دائماً في أَحلامي وَيَقَظَتي، في عَمَلي وَرَاحَتي وأَنا مَعَ أَصحابي وَرِفاقي أو من خِلالِ كِتابٍ أُعِدُّهُ أو في اجتماعٍ أَحْضُرُه، فَصُورَةُ مَسقطِ رأسي لا تُغَادِرُ مُخَيِّلتي. وَغَلاوَةُ مَرْتَعِ الصِّبَا لا تُضَاهِيه غَلاوةٌ، هذه أرضي وجولاني.

بلاد يسيل منها العسل

أَلا تصدق، إنه عَسَلٌ طَبيعيٌّ صَافٍ قالها أبو صالح وهو يخاطبُ ضيفهُ الَّذي أجابهُ: بلىٰ ولكن ليَطْمَئِنَّ قلبي.

قال له أبو صالح: هيا معي في رحلتي مع العسلِ الَّذي ذَكَرَهُ اللهُ تعالىٰ في القرآنِ الكريمِ ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ صدق الله العظيم.

قال ضيفه: لي أين يا أبا صالح.

قال: سَأُرِيكَ بِعينيكَ، فَرَافِقْني في رِحْلتي الّتي أَجْلُبُ فيها العسلَ، ولكن هل تريد عَسلَ السَّهلِ أَم الجَبَلِ؟

قال: فالسَّهلُ قَريبٌ إنه في كَرْمِي وَمِنْ خلايا نَحْلاتي الّتي أُربِّيها وَأَعتَني بِها دائِماً، أَحَافِظُ عليها و أَطْرُدُ عنها الأَعْداءَ كالدَّبَابِيرِ، وَطُيُورِ الوَرْوَارِ، والحَرْذُون.

قال ضَيْفُه: ولكنّي أَريدُ مُرَافَقَتَكَ في رِحلَتِكَ لِجَنْيِ عَسلِ الجَبَلِ فإنه موصوفٌ لي من الأَطباءِ.

فَتَجَهزَّا، وَحَمَلَ أبو صالح أَحْمَالَهُ وَعُدَّتَه علىٰ حِمَارِه وسارا في الطريقِ المؤدّي إلىٰ الوادي المُجَاوِرِ للقريةِ، كان صاحبه مسروراً بهذه الرحلةِ، إنَّ فيها مِتْعَةً وَفَائِدةً وإِطّلاعاً علىٰ مَنَاظِرِ الطبيعةِ الخلابةِ.

سارا يَغُذّانِ الخُطَا، فإن أبا صالح لا يعرفُ المَشيَ البَطِيءَ، وكان صاحبه كَذَلك رياضِياً من الكشافة الأوائلِ في مدينةِ دمشق.

سارا فقطعا الطريق الفَرْعِي المُوصل إلىٰ أول الوادي وَنَزَلا ثُمّ صَعَدا وِهَاداً وَتِلالاً. كان السير صعباً في بَعضِ مَراحلهِ لشدةِ الانحِدار وكثرةِ الانزلاقاتِ.

وقفَ مرافقه ولا يعرف إلىٰ أَينَ يَنْظُرْ، وكل شيء يُبْهِرُ نَاظِريه فكلُّها أَدْهَشَتْه وسَحرتهُ، فالزروعُ الخضراءُ، والأَشجارُ الوَارِفَة، والعيونُ الرّاشِفَة والطيور السَّابحة في الفَضاء والهواء العليل..... وكل ما فيها يسحر العقول.

كان أبو صالح مُسِناً وعمرُه في الستين، وَبِقُوّةٍ بَدَنِيَّةٍ طَالما يتحدىٰ الشَّباب، وأَما رفيقهُ الدِّمشقي فإنه رياضي يَنْتَسِب إلىٰ أَحد النوادي الرياضية في دمشق، ويحب الرحلات والاكتشافات فهو كَشَافٌ ماهرٌ يقطعُ عصا بسكينه الحادة، وجَعَلها عَصا الكَشَّافِ الّتي لابدَّ منها في رِحلاتِ الكَشَّافين، وتابعا السير، وحمار أبي صالح يجري وراءهما.

قال: أَلم نَقْتَرِبْ أَما زِلنا بَعيدينِ عن المكانِ المقصودِ فلم يكترثْ لسُؤالهِ، وتابعا الانحدار فما كان منه إلّا أن تنحَّىٰ إلىٰ شِعْبٍ سَحيقٍ فيه دُروبٌ قد صَنَعَتْها الماعِزُ الجَبليّة، والحيواناتُ البريةُ، وفي المكانِ سَمِعا

صوتَ مزمارِ الرَّاعي (مصطفى) وألحانهِ العَذْبَةِ وَصَداها الرَّاجِعُ في الوِديان يُعطي المكان هالةً من الكِبْرياءِ والجَمالِ، وماعِزُه مُنْتَشِرةٌ حولَهُ تَأكل من نباتاتِ الجبلِ المُغَذِّيَةِ لا يشغلها شيء إلَّا نُباح كلبه وتدخلاته في شؤونها عندما تبتعد كثيراً أو تتأخر.

نادىٰ الراعي علىٰ أبي صالح فرحاً به: حياك الله يا أبا صالح. سوف نأكل اليوم عسلاً، فرد عليه: نلتقي عند نبع العين فَحَضِّرْ سَطلَ حليب ريثما نصل إلىٰ هناك.

وفي بَطنِ الوادي ألقىٰ أبو صالح رِحالَه، وحَمَلَ حِبَاله وَأدواته إلىٰ شِقٍّ ضَيِّقٍ وصاحِبُه يَتْبَعه، قال له: ابق هنا فإني أَخافُ عليك من السقوطِ، ولكنه لم يقبل وتابع معه التسلق، مرة يتمسكون بِقَلْعَةٍ كبيرة، وتارة بأغصانِ شجيرةٍ جبليةٍ، حتىٰ وصلا إلىٰ وسطِ شِعبٍ ضيقٍ لا يكاد يتسع لشخصٍ واحدٍ، وتَمَركَزَ أبو صالح أمام شقوق حادَّةٍ، شاهد المرافقُ أفواجَ النحلِ وهي تَتَتابَعُ محملة بالرحيقِ والعسلِ اللذيذِ.

فأخرج أبو صالح عدَّته وأشعل ناراً يحمي نفسه بِدُخانِها من هجماتِ النَّحلِ البريِّ المتوحشِ، لكنه قد تعوَّد علىٰ لَسعَاتِها المُؤْلِمَة، وأصبحَ جسمُه متاوماً لها.

وبدأ عمله بِفَتحِ أبوابِها الّتي خَبِرها كلَّ عام، وصاحبه ينظر إليه

بمنظارٍ يحملُهُ. وقد هَالَهُ ما رآه إنه عشٌ يعجُ بالنحلِ ويمتلئُ بأقراصِ العسلِ. والنحلُ يحاولُ مهاجمةَ أبي صالح ولكن دون فائدة.

بدأ يقطف أقراصَ العسلِ. ويُعَبِّئُ الفَوارغَ الّتي أَحضرها. وكان يربطها بالحبالِ ينزلها لصاحبِهِ وهو يبعثُ له بغيرها، حتىٰ أكملَ مهمتَهُ وأبقىٰ للنحلِ مؤنة الشّتاء وأَمَّنَ عليها، وعَمَّرَ بابها إنها مُلْكُهُ لا يستطيعُ أَحدٌ الاعتداءَ عليها مادام هو الّذي اكتشفها أولاً ووضعَ عليها علامَتَهُ.

ولما نَزَلَ وشَاهدَ ما جَنىٰ من العمليةِ، حَمَدَ الله علىٰ هذا الخيرِ والعطاءِ من ربِّ العالمين. وقالَ لصاحبِهِ المندهش من كثرةِ العسلِ وطيبِ طعمِهِ وكيف أَتَمَ هذا العمل بكل شجاعةٍ ودقةٍ.

قال صاحبه: حقاً إنها بلادٌ يقطرُ منها العسل.

إنها الأرضُ الطيبةُ الّتي لا تُقَدَّرُ بثمنٍ، فهي أَرض أَجدادِنا يَجِبُ أن نحافظَ عليها، ونَحميها من الأعداءِ الطامعين، بِدِمَائِنا وأَرْوَاحِنا.

طاقة النَّمِر

وفي طريقِ العودةِ..... وبين الوِدْيانِ المُلْتَوِيةِ حيث سارا في طريقٍ أَطْوَلَ ولكنها مستَوية أكثر وقد قصد أبو صالح أن يعرِّفه علىٰ مكامنِ الطبيعةِ وعَجَائِبِها في هذا الوادي العجيب.....

قال: ما هذه المَغَارَة يا أبا صالح!

أجابه: إنها مغارةٌ يقال عنها (طاقَةُ النَّمِرِ)

فقد كانت مأْوىٰ للنمور، وتتوالد فيها وتَجُوبُ هذا الوادي، فَتَصيدُ..... وَتَفْتَرِسُ كما يحلو لها.

وَكانَ أَنْ حَدَثَ مرةً وكعادَتِها، فقد اخْتَطَفَ أَحدُها جَدْياً أمام مرأىٰ من الرُّعاةِ لا حولَ لهم ولا قوة.

وَتَصادَفَ ذلك مع قدومِ أحدِ الصَّيادين من مدينة دمشق إلىٰ هذا المكان، عندما سَمِعَ بوجودِ النُّمورِ وأَرَادَ اصطيادَ أَحدِها، بَعدما جرىٰ تحدٍّ بينه وبين صيادٍ آخَرَ، وكان رِهاناً علىٰ أن يَصيدَ نَمِراً، إنه رِهَانٌ صَعْبٌ سَرَعَ الرُّعَاةُ يطلبون منه العونَ علىٰ التَّخَلُّصِ من هذا المُفْتَرِسِ الَّذي يُنْقِصُ قَطيعَهم كل يومين خروفاً أو جدياً.....

فأَوْصَلُوه إلىٰ حيثُ يَرقدُ الحيوانُ المُخيفُ، ووقفوا يَرقبونَ المشهد.

صَعَدَ الصَّياد ثَنَايا الجَبَلَ القاسي بين قِلاعٍ وَوِهَادٍ وَجُرُوفٍ خطيرةٍ، إنه الشَّابُ الَّذي تَمَرَّسَ على التَّحَمُّلِ والصَّبر، والرَّجلُ القَوي الشُّجاع الَّذي يَثِقُ بِبُنْدُقِيَّتِهِ كثيراً فهو دقيقٌ في تَصْويبِه، وخَطِيرٌ في رمايتِه. وَوَاثِقٌ من نفسهِ كثيراً عندما يلاقي مثل هذا الوحشِ الخطيرِ. تسلقَ إلى الأَعلى وأَمَامَ المَغَارَةِ الرَّهيبةِ، يا للهول! إنها مَليئَةٌ بالعِظَامِ، وَبَقَايا الحيوانات، إنَّ رائحتها لا تطاق، ولكنه تَشَجَّعَ وَهَيأَ بُنْدِقِيَتَهُ وإِصبَعُه على الزِّنادِ والرُّعاة من أسفلٍ يرقبونَ المشهدَ المخيف، ويتشوقون إلى رُؤْيَةِ هذا المفترس مقتولاً على يدِ هذا الصيادِ الماهرِ.

وحان وقت الانْقِضَاضِ على النمرِ والقَضَاء عليه، دخل المغارةَ من بابها الضَّيق، وتواجه مع الوحش الَّذي انْزَوىٰ في رُكنٍ مظلم، وعيناه تبرقان كالجمر، وَزَأَرَ النِّمْرُ وقد استَغْرَبَ وُصولِ هذا الإنسان إلى عَرِينِه، وَتَطاوُلَه في الصعود إليه وهو الَّذي خَبِرَ البَشَرَ وهم بَعيدون عنه، يهشون عليه وَيَقْذِفُونَه بالعُصِيِّ والحِجارةِ إنه يخافُ مواجهتهم ويَتَحاشَاهم، فما بَالُ هذا الَّذي يُهاجِمُه في وَكْرِهِ ويَتَجَرَّأُ على حِمَاهُ، إنَّهُ يَحْمِلُ أَدَاةً تَلْمَعُ وَلَيْسَتْ عَصَا فَتَجَمَّعَ في بَعْضِهِ وَفَغَرَ فَمهَ وَكَشَّرَ عن أَنْيَابِه المُخِيفَةِ.

صَوَّبَ الصَّيادُ بُنْدِقِيَتَهُ إلى حَيثُ يَرْقُدُ الوُحشُ وَأَطلق رَصَاصَتين في وَجْهِهِ، ولم تكونا قَاتلتين وقد اعتقدَ هذا أَنَّهُ قَضىٰ عليه، وَدَخَلَ لِيَسْحَبَهُ

خَارجاً وَلكنَّهُ مازالَ حيّاً وَقد جُرِحَ جُرْحاً بَليغاً فما كان من الوحشِ إلّا أَنْ هَاجَمَ الصَّيادَ، لقد أَرادَ الانتقامَ رَغمَ نِزَاعِه وَجُرْحِهِ البَليغ. وحاولَ الإمساكَ في خِنَاقِهِ. ولكنَّ الصَّياد أَسرعَ بِسَحبِ سِكِّينِهِ من جنبه وغرزَها في رقبتِهِ، وكان النَّمِرُ وصل إلىٰ يد الصَّياد وسَحَقَها بين فكيهِ القويتين وَمَاتَ النَّمِرُ وَخَسِرَ الصَّيادُ يدهُ اليسرىٰ، وتنادىٰ الرُّعَاة، فَصَعَدو لِمُسَاعَدَةِ الصَّيادِ الشُّجاعِ وقد حَزنوا علىٰ ما أَصَابَهُ.

وفرحوا لأَنَّهم تَخَلَّصوا من أذىٰ هذا النَّمِرُ المُعْتَدي، كي تَسْرَحَ القطعان في حُرِّيَةٍ وَأَمانٍ.

سأَلَ المرافق: يا صاحبي! هل مازالتْ هذهِ الوحوشُ المفترسة؟

أَجَابَهُ: إِنَّ النّمور قد اختفت ولم تعد موجودةٌ، وهناك الذِّئابُ والضِّباعُ والثَّعالبُ وتتواجدُ خاصَّةً في المنطقةِ المُجَرَّدَةِ مِنَ السِّلاح بين سورية وفلسطين المُحتلة مثل وادي نقيب العربية، وفيه قُطعَانٌ من الخنازيرِ البَرِّيَةِ المؤذِيةِ.

كَلْبَةٌ تَصْرَعُ النَّمِرَ

وتابعَ أبو صالح، وهو مسترسلٌ بالحديثِ وصاحِبُه يريدُ الإطلاعَ علىٰ المزيدِ من أَسرارِ هذه البلادِ الجميلةِ البِكرِ، إنها مَليئَةٌ بالأحداث وقِصَصِ الزَّمانِ الّتي لم تُرْوَ، إنَّها كَنْزٌ مِنَ الحكايا، وكنوز من الجَمَالِ الأَبَديِّ، مدفونةٌ في طياتِ تُرْبَتِها وسَطَ مَقَابِرَ الأَقدمين.... وَتَوَقَّفَ رَكْبُهم قليلاً عندَ عجوزٍ تَحْفِرُ الأَرضَ في تُربَةٍ قاسيةٍ قال أبو صالح: هذه الخالة (نورة) ونادىٰ عليها.

فانْتَبَهَت، وردَّت: أين يا أبا صالح..... هيا أنت ومن معك... أني أرىٰ أحمالك عسلاً، فَنَزَلا بُرْهَةً عِنْدَها، وقد سأَل صاحِبَهُ عن سر عَمَلِها هذا فقالت له: إنك من المدنية، أليس كذلك؟

خُذْ هذهِ هدية لك، وَأَعْطَتْهُ مَكْحُلَةً وَجَدَتْها أَثناءَ حَفْرِ التُّرَبةِ، وبعضُ العُمْلاتِ الرومانيةِ، وأَشَارَ أبو صالح: هي تُحْفَةٌ رومانيةٌ والأرض هنا فيها الكثير منها.

فَرِحَ جداً بهذا المَكْسَبَ إنها ذِكرىٰ، سوفَ يحافظُ عليها وهي لإحدىٰ الرُّومانيات مَدْفونَةٌ معها منذُ آلاف السِّنين.

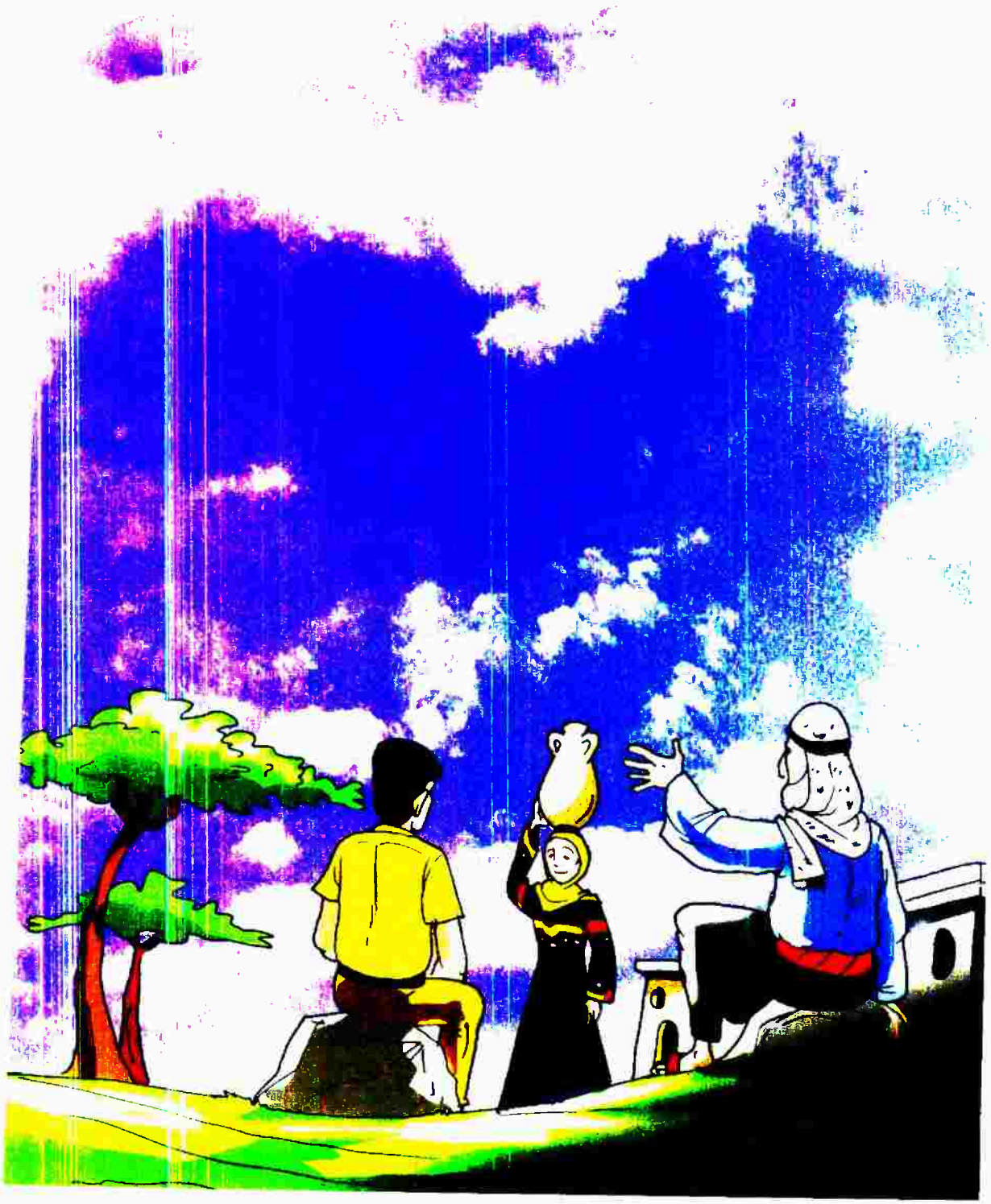

واستَدَارَ إلىٰ العَجُوزِ نـورة! وسـأَلها مـاذا تفعلـين بهـذه التُّربـة الّتـي تَجْمَعينها....

فأجابتـه: إنهـا التُّربـةُ الغُـضَاريَّةُ الّتـي تَـصْلُحُ لِـصُنْعِ الخَـوابي... والفُرْنِيَّاتِ... والجِرارِ أَصنَعُها بيدي واشـويها بالنّـارِ، وهـي تَحْفَـظُ المـاءَ بارداً، وَتُنْضِجُ الخُبْزَ والطَّعامَ في الفُرْنِيَّاتِ بعد وَقْدِها بالحَطَبِ.

قالت: خُذَا هـذا الخُبـزَ المَـشويَّ في التَّنُـورِ لابـد أَنَّكـما لم تَـأَكُلا مُنـذُ الصَّباحِ، وَأَعطتْهُما قِطعاً مِنَّ الجبنِ... واستدارَ أبـو صـالح وَفَـتَحَ غطـاءَ وِعائِهِ وأَخْرَجَ قطعةً من أقراصِ العسلِ وقال: إليك طعامكِ المُفَضَّل...

وتابعا السَّيرَ فَوَصَلا مكان عينِ الماء، حيـث الراعـي ينتظرهمـا وقـد أَحضرَ وِعَاءَ حليبِ الماعزِ وأرنباً مشوياً، وتَغَـدوا غـداءً لذيـذاً في وسـطِ الطبيعةِ الجميلةِ وقال: الرَّجلُ الشّامي، لم أَذُقْ أَطيـبَ مِـنْ هـذا الطَّعـامَ، رغمَ أنّي أَكلتُ وجباتٍ في أغلبِ مطاعمِ دمشقَ.... وغيرها.

قالَ صاحبُه: ما هي قِصَةُ الكلبـة مـع النّمـر الّتـي سـمعتها، وكيـف حدثت؟ فأجابه إنها جدةُ هذين الكلبين الأمينين.

قال الراعي مُتَدَخِلاً: إن كِلابَنا قَويَّةُ شُجَاعَةٌ ووفِيَّةٌ ولهـا مـن الـذَّكاءِ ما يجعلها تعرفُ أَفرادَ القطيعِ وَتَجْمَعَـهُ وتحـافظُ عليـه، وأَشـارَ إلىٰ كلبيـه وهو يرمي لهما قِطَعَ الخبزِ واللّحمِ، ويقـول: كُـلا فإنـه مـن صَـيْدِكُما (أي

الأرنب)، تَصَوَّر أنها يحميان القطيعَ من هَجماتِ الذِّئاب المفترسةِ، ويطردانها كلما هجمت عليه.

قال الرَّاعي: لقد سَمِعْتُ القصَّةَ من جَدّي.... أرْوِيها لَكَ كما رَوَاها لنا في إحدىٰ السَّهَرات.

قال: في الهزيعِ الأخيرِ من اللّيلِ، وفي كلِّ أُسبوعٍ يفقد أَهلَ الدارِ أحدَ حيواناتهم الموجودة في الزَّريبةِ، وقد احْتَارُوا في تفسير ذلك رغمَ أَنَّ الكَلْبَةَ موجودةٌ علىٰ ظَهرِ التَّبّانِ تَحمي الدَّار، فلم تَنْبَحَ ولم تُصْدِرْ ما يُشيرُ إلىٰ وُجودِ مُتَلَصِّصٍ في الدَّار، فلو كان لِصُّ حَيَواناتٍ لَطَرَدَتْهُ وَنَبَّهَتْ إليه، ولو كان ذِئباً أَو ثَعلباً أَو ضَبُعاً... وغيره لَدَافَعَتْ عن الزَّريبةِ بِقُوَّةٍ فهي الحارسُ الأَمينُ.

وتابع الرَّاعي كلامه وبين الفينة والأخرىٰ ينادي علىٰ قطيعه وَكَلْبَيهِ، وأبو صالح مهتَمٌّ بإطعامِ حِمارِهِ الَّذي يُرافِقُه في رِحلاتِه إلىٰ العَسلِ وغيره.

وتابع الرَّاعي: إنَّ جَدّي عَرفَ بأن وَحْشاً يُخيفُ الكَلْبَةَ وَيَنْزِلُ إلى الزَّرِيبَةِ، وهي لا تَجْسُرُ علىٰ النُّباحِ، وَتَهْرُبُ مُخْتَبِئَةً عن طريق رَوْزَنَةِ التَّبّانِ القريبِ منها، وهي تُعتبرُ الرَّوْزَنَةَ طريقاً للنَجاةِ لها ومَخْبَأً من قَتْلِ الوَحْشِ لها.

ولكنَّ حساباتها هذه المرةَ لم تَسِر كما تَوَقَّعَتْها فقد أَشارَ الجَدُّ بإغلاقِ

هذه الرَّوْزَنَة ، وَتَمَّتْ العَمَليَّةُ ومع ولوج اللَّيلِ والهزيعِ الأخيرِ، وفي الظَّلام الدَّامسِ قَفَزَ الوَحْشُ مُتلمِّساً طريقهُ المُعْتَادَةَ ولما رَأَتْه مُسرعاً نَحوها وهي رَابطةٌ علىٰ السَّطحِ، جَانِبَ فَتْحَةِ الرَّوزَنـة... المُغلقـة فَخَافَـت منـه، لأَنَّـهُ سَيَفْتِكُ بها، وعليها الهَرَبَ مِنَ الفَتْحَةِ إلىٰ التَّبّانِ ولكنهـا لم تَجِـد الطَّريـقَ مفتوحةً، فَبَحَثَتْ عنها وَوَجَدَتْها مُغْلَقَةً، فَجَمَدَتْ في مكانِها خَوفاً وَرَهْبَـةً وَقد أَصبَحَ فَوقَ رَأسِها، وَأَرادَ الفَتْكَ بها بِضَرْبَةٍ أَو عَضَّةٍ من أَنيابِه الحادَّة، لكنها وفي لَـحْظَةِ جُرْأَةٍ ومن بابِ الدِّفاعِ المستميتِ عن الـنَّفسِ، تَعَلَّقَـتْ برقَبَتِهِ وَغَرَزَتْ به أَنيابَها، ولم تُفْلِح كلُّ مُحـاولاتِ النَّمِـر للـتخلص منهـا وهو يَرْفَعُها وَيُنْزِلُها وَيَـضْرِبُها بِمَخَالِبِـه الحَـادَّةِ، وَلكـنَّ الكَلبـة اسْـتَماتَتْ بالتَعَلُّقِ به حتىٰ انتهىٰ وَمَاتَ، ولم يَعد يَتحرَّك... وَبَقيَـت الكَلْبَـةُ مُمْـسِكَةً ومُطْبِقَةً بِأَنْيَابِها علىٰ رَقَبَتِهِ ولم تُصَدِّقْ نِهايَةَ النَّمِـر الَّـذي مـاتَ بـينَ أَنيابهـا وعلىٰ يَديها.

وعندَ الصَّباحِ، كَانَ المشهدُ المثيرُ، إنها مازالت مُتَعَلِّقَةً بِرَقَبَتِـهِ، وَرَغْـمَ حُضورِ النَّاسَ وَرَكْلِهم وَضَرْبِهم لها فَلم تَتْرُكْه وكأَنَّهـا لم تُـصَدِّقْ أَنَّـهُ قَـد مَاتَ، فَقَالَ الجَدُّ: افتَحوا لها بَـابَ الروزَنَـة.... وعنـدما رَأَتهـا مَفْتُوحـةً، تَرَكَتْهُ وَرَمَتْ بِنَفْسِها إلىٰ طَرِيقِ الهَرَبِ، وهو جُثَّةً هَامِدَةً.

فَقَالَ الصَّاحِبُ: يَا الله إنَّها القُوةُ الخَفيَّةُ الكَامنةُ في كُـلِّ مخلـوقٍ، إنَّهـا غريزةُ الدِّفَاعِ عن الرُّوحِ عن الحياةِ فهي تثير العَجَبَ.

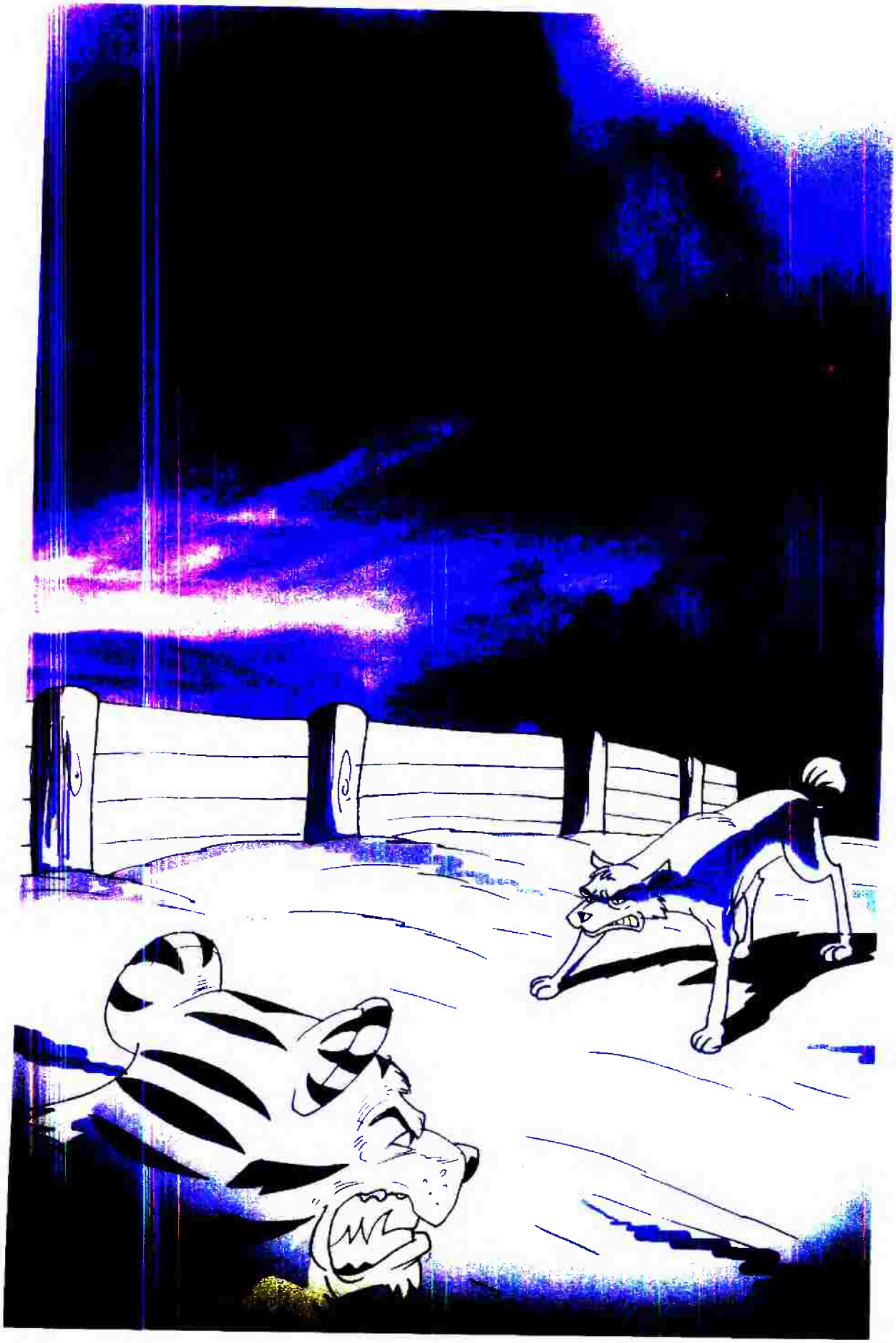

الزورق الحربي الصهيوني

قالَ الضَّيفُ: انظر يا أبا صالح، فماذا ترىٰ؟ فأجابه: إنه الزورق الحربي الصهيونيُّ، قَدِ اقتربَ من الشَّاطئ السُّوريِّ للبُحيرةِ، ولابُدَّ أَنَّ جنودَنا قَدِ استَنْفَروا للرَّدِّ عليه، وهاهم قد كَشَفوا الشَّادر عَن المدفع، وتَمَرْكَزَ كُلٌّ علىٰ سِلاحِهِ، وَبدأَ الرُّعَاةُ يُبعِدونَ مُوَاشيهم عن أرضِ المعركةِ، فهذا قطيعُ الجاموسِ في ماءِ البحيرةِ ويبدو أَنَّهم سَيُطلقونَ النَّارَ عليه.

وكُلُّ ذلكَ والرَّجُلُ الشَّاميُّ يَنْظُرُ إلىٰ الزَّورَقِ بِدَهْشَةٍ.

سَأَلَ: إنيّ أَراهُ كَبيراً وفيه أَشياءٌ كَثيرةٌ وعليه جُنْدٌ كَثيرون، وكأَنَّه قَلعةٌ عَائِمَةٌ فَوقَ سَطحِ الماء، وَأَضَافَ الرَّاعي: إِنَّهُ مُصَفَّحٌ تصفيحاً قوياً لا يؤثرُ فيهِ الرصاص.

وَبدأَت المعركة، والمعتدونَ يطلقونَ النَّار علىٰ السُّكانِ وحيواناتهم الّتي جَاءَت لِتَشْرَبَ من البحيرةِ إن الجنودَ في المخافرِ السُّوريةِ يردون عليهم، واشتعلتِ الأرضُ بالرصاصِ والقنابلِ في كُلِّ مكان، إِنَّه يَحملُ مَدَافعَ وذَخَائِرَ وَرَشَّاشَّات وغيرها فهي أسلحة حديثة، قال صاحِبه، إِنِّي أَراه وقَد تَطَايَرَ منه الشَّرر، واشتعلت فيه النَّار، إِنَّها إِصابةٌ محكمةٌ من

مدفع سوري، مَرحىٰ لرامٍ ماهرٍ، وقد أتبعوها بزخاتٍ من الرشاشات الثقيلةِ والبنادقِ، كيف لا وَهم حُماةُ الأَرضِ والماءِ والسَّماءِ، إنَّه الجيشُ العربيُّ السّوريُّ الَّذي طَالما بقيَ قوةً عظيمةً تتصدىٰ لأطماعِ العَدوِ الَّذي يُريدُ أَنْ يبتلع كل شيءٍ، لقد احتلوا فلسطين ويريدون أن يَتمادوا علىٰ أَرضِنَا ومياهِنا.... وأَشارَ أبو صالح إلىٰ الجهةِ الشماليةِ وقال: أُنظر هُناك فَوقَ البُحيرة وقبلَ أن يَصُبَّ النَّهرُ فيها، لقد حَفَرَ الصَّهاينة قناةً عبر المياهِ إلىٰ الأرضِ المحتلةِ حتىٰ أراضي النَّقَب في فلسطين الّتي اغتصبوها منذ عام (١٩٤٨) ليسقوا المزارعَ والحقولَ، ويبنوا المَسَامِكَ والمَسابِحَ إن لديهم إمكاناتٍ كبيرةً، فنيةً ومادية.... فالإنكليزُ والأمريكان والإمبرياليون يدعمونهم، ويدافعون عنهم وهم الَّذين أَسَّسُوا دَوْلَتَهم وأَقاموها بين العرب وعلىٰ أرضِ فلسطين. ولكن الجيشَ الرابضَ هناك. فوق هذه القناة يمنعهم من الوصولِ إلىٰ النهرِ، وفي كُلِّ يومٍ معركةٌ. ومدفعيتنا تُحَطِّمُ أيَّ آلةٍ تُريدُ الاقترابَ من النَّهرِ، إنَّهم جنودنا لا يرهبون أسلحة العَدو ولا طياراته الّتي تغيرُ عليهم في كُلِّ يوم.

وكانَ الزَّورقُ يَبتعدُ حَاملاً قتلاهُ وجرحاهُ، وَلَكِنَّ أَطماعهم لا تَنْفَكُّ، وحقدُهم لن يَهْدَأَ.

وأشارَ أبو صالح إلىٰ قناةٍ غيرِ قريبةٍ، إنها محفورة في جبل شرق البحيرة بعدةِ كيلو مترات، إنَّ فيها بقايا لآلات محطمة وَبَلْدوزَراتٍ وحَفاراتٍ وبقايا خِيامٍ وغيرها....

إنها قناةُ لجَرِّ مياهِ نَهرِ الأردن باتجاه سورية والأردن لمنعِ سرقتها بالمشروعِ الصهيوني الَّذي يأخذها إلىٰ الأراضي المحتلة، إن لها أهدافاً عربية اشتركت في تنفيذها أغلبُ الدُّول العربية في إطارِ الجامعة العربية، إنَّها تُعَطِّلُ المشروعَ الصهيوني إذا تمت ولكنها مع الأسف لم تتم حتىٰ ولم تبدأ. فقد رأينا عشرات القاذفات العملاقةِ تُلقىٰ عليها وعلىٰ آلياتها أطناناً من القنابل المدمرة والحارقةِ وأصبحَ هذا المشروع أثراً بعد عين.

وتعجب الضيف، وقال: وكل هذا أراه في يومٍ واحدٍ وفي هذه المنطقةِ، إنها مليئةٌ بالأحداثِ والحكايات، إنَّها البلادُ السَّاحرةُ في كلِّ شيءٍ حتى في قِصَصِها وتاريخها.....

وكانَ اللَّيلُ قد أَسْدَلَ سَتائِرَهُ والنُّجومُ أَطَلَّتْ مِنْ بَينِ أَطرافِ الجِبالِ، والرَّاعي يُسْرِعُ بِتَطْيِعِهِ نَحوَ القَريةِ، وَقَدِ امتلأت بطونها وَضُروعها لتعود بالخيرِ على أصحابها.

وهذا أبو صالح ومعه الضَّيفُ المندهش بما رأىٰ يدخلُ دارهُ الوَاسِعَةَ فتلقاه أبناؤه، وأنزلوا أحمالهُ، وبَدَأوا بالاستغرابِ من إحضارِهِ هذا الطَّيرَ

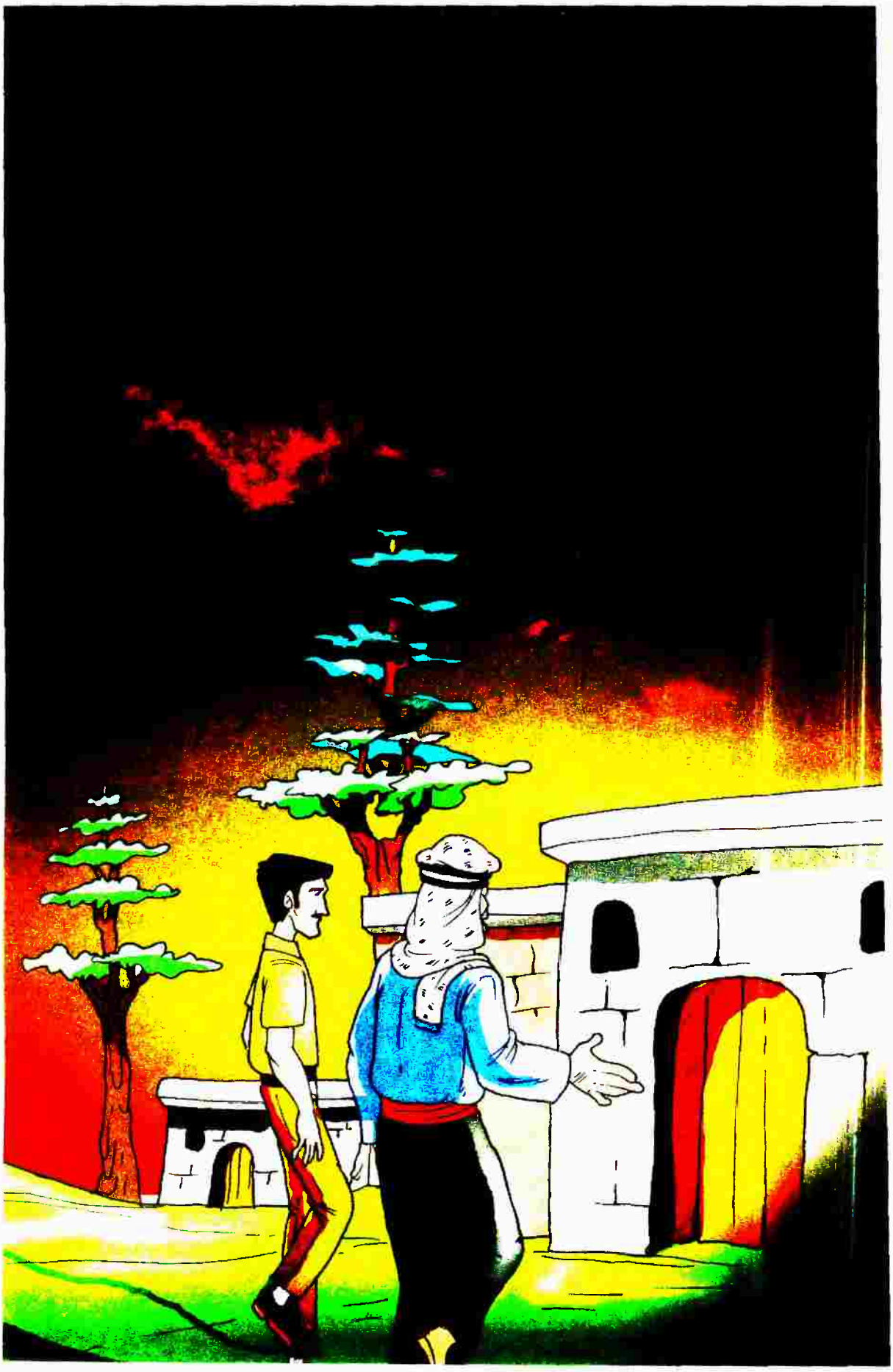

المُؤذيَ، إنَّه يَخْطِفُ الدَّجاجَ والأَرانبَ، فلماذا يَعتني ويَهتم بِهِ، ويريدُ مُعالجته، إنَّ لله في خلقهِ شؤوناً.

قال الضَّيفُ: إنَّ لهذا الطَّيرِ مَنافعَ ثمينةً للإنسانِ فهو يَصطَادُ الفئرانَ الَّتي تُتْلِفُ الزروعَ في الحقولِ، وَيُطَاردَ الثَّعالبَ والنَّسانيسَ، ويقتلُ الحيَّاتِ المؤذيةَ وقد وجدناهُ هناكَ يُهاجمُ أفعىٰ سامةً ضخمةً وهو يُطْبِقُ علىٰ رَقَبتِها بِمنقارِه الحادِّ وعلىٰ جِسمِها بِمخالبِهِ كالسَّكاكين، والتَفت عليه بِعضلاتِها القَويةِ فَكَسرَت جناحيهِ ولم يَعد يستطيعَ الطَّيرانَ وسأَعملُ علىٰ مُداواتِهِ عِندَ طَبيبٍ بيطريٍ ماهرٍ أَعرفُهُ في دِمَشقَ وسأضعُهُ في حَديقةِ داري حتىٰ يَقدرَ علىٰ الطَّيرانِ، فعلينا أيها الشَّبابُ أَنْ نُحافِظَ علىٰ هذه الحيواناتِ النافعةِ النادرةِ.

أُعجِبَ الجميعُ بما سَمِعوا منه، وما يعرفه من معلوماتٍ عن الطَّبيعةِ وحيواناتها وهو يُريدُ أَنْ يَطِلَّعَ علىٰ المزيدِ منها خلال هذه الجولات في بلادنا الخيرة.

أسرعوا في جلبِ ديكٍ وقَدَّموهُ إلىٰ الطائرِ الجريحِ، فأَقدمَ على افْتِراسِهِ وقد استبشرَ الضَّيفُ خيراً، إنه سَيتعافىٰ مَادامَ يأكل ويشرب.

حقل الألغام

كان يَعْتَني بها، وَيسقيها الحَليبَ ويُربيها فَتَصْحَبُه كَظِلِّه، كانت تَتْبَعُهُ أَيْنَما ذَهبَ، وهو يُنَادِيها فَتُسْرِعُ إليه إنَّها ابْنَةُ العَنَزَةِ الجَبَلِّيةِ.

كانَ أَحمدُ، ذلك الولدُ الصَّغيرُ الَّذي لم يَتَجاوزِ التَّاسِعَةَ مِنْ عُمُرِهِ، يَخْرُجُ بِمجموعةٍ منَّ الخرافِ الصَّغيرةِ إلىٰ الحقولِ المجاورةِ لقريتهم الجميلةِ المُحاطةِ بالكُروم والبَساتينِ المزروعةِ بالزَّيتونِ واللَّوزِ والتّينِ والعنبِ والرُّمانِ والصَّبَّارِ.... وَكُلِّ ما تَشتَهيه نَفْسُكَ من الفواكِهِ تَجْدُها في بَساتينِ قريةِ (سكوفْيا) العاليةِ فهي مَبْنِيَّةٌ فَوقَ قَلْعَةٍ قَديمةٍ، وتُحاكِي من مُرْتَفَعَاتها جِبَالَ الجليلِ وصَفد في فلسطين الحبيبة.

كانت الجَدْيَةُ الصَّغيرةُ تَقْفِزُ من صَخْرَةٍ لأخرىٰ، ومن حُفْرَةٍ إلىٰ حُفْرَةٍ، وإلىٰ ظهرِ الوَلَدِ أَحمد الَّذي يُحِبُّها كَأَنَّها رَفيقٌ عزيزٌ عليه.

كان كَلبُه يُرافِقُه، ينادي عليه فَيُسرِعُ في جَمْعِ القَطيعِ فهي خِرافٌ صغيرةٌ، عُزِلَتْ عن أُمَّاتِها وقد كُلِّفَ الولدُ الصغيرُ (أحمد) من قِبَلِ والدِهِ بالعنايةِ بها ورِعايتِها وتَسْمِينها طيلةَ أشهرِ الصَّيفِ، وفي حقولِ القريةِ المملوءةِ بالمرعىٰ وبَقَايا الحصيدِ.... كان والده يبيعُها للقَصَّابين وأصحابِ المطاعمِ الّتي كَثُرَتْ أَخيراً بِسَبَبِ تَمَرْكُزِ عَناصِرِ الجيش فيها،

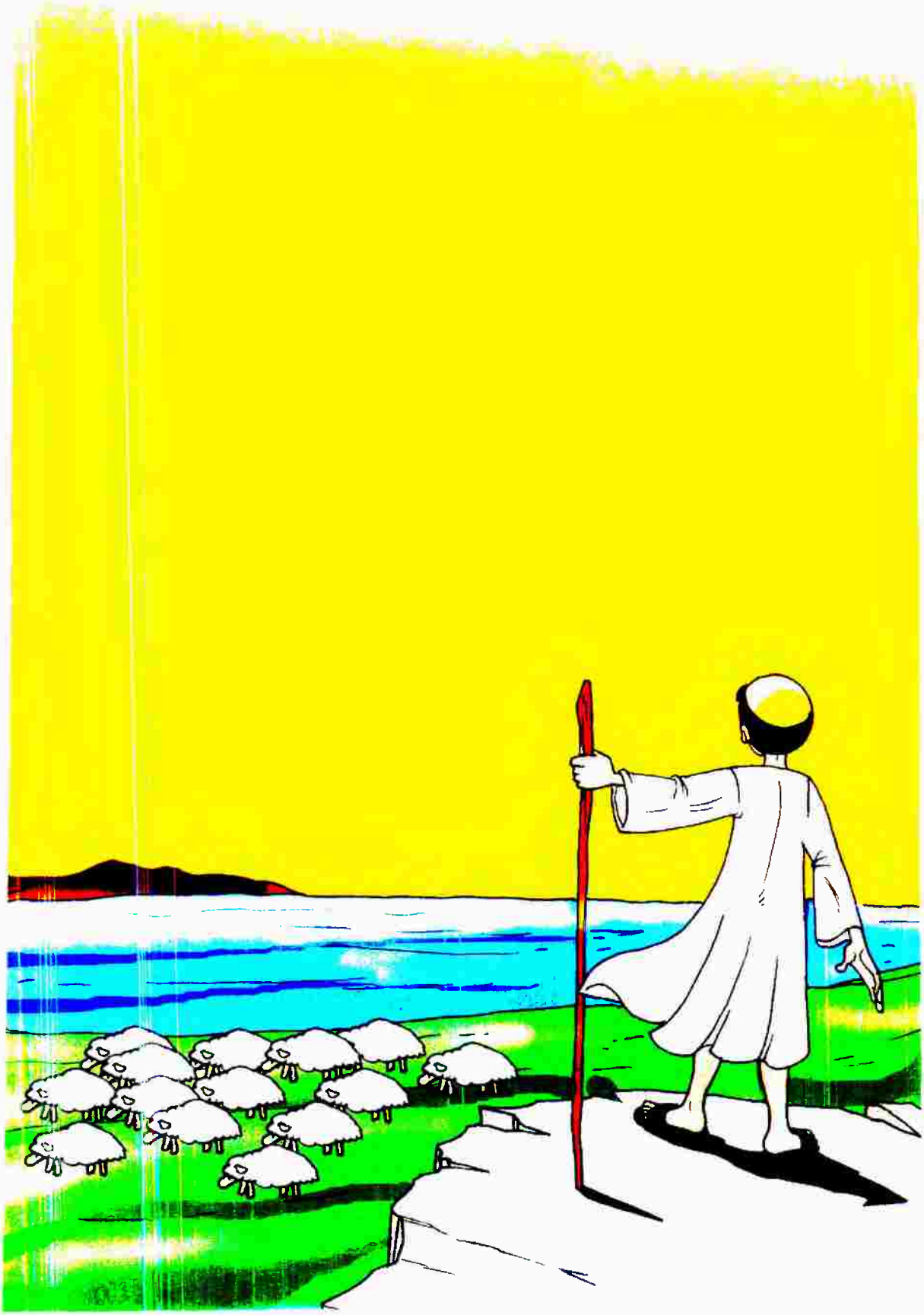

والِتحاق عائِلاتِهم بهم، لقد كان يَسُدُّ بَعضَ مَصارِيَفه من أَثمانِها، فالبيتُ يحتاجُ إلىٰ السكرِ والأرزِ والشَّاي والقهوةِ المرَّةِ..... والأَغذيَّةِ الكثيرةِ.

والأمُ والأولادُ والبناتُ يحتاجون إلىٰ المَلابسِ ومصروفِ المدارسِ... إِضافَةً لأثمانِ الدَّواءِ وغيرها....

كان الولد يَهْتَمُّ بها، ويَعْرِفُ مُهِمَّتَه، يأخذُها إلىٰ حيثُ المأكلَ والربيعَ الجيِّدَ وحيثُ الماءُ النَّظيفُ الخالي من العلقِ.... وغيره، كان يَقْطِفُ الأوراقَ الطَّريَّةَ والنَّباتاتِ المغذِّيةِ من الحَقلِ، وَيُقَدِّمُها لقطيعهِ ويجمعُ السَّنابِلَ المتساقطةَ من أَحمالِ الرَّجادين وَيَدُسُّها في أفواهِ طِليانِه وَجَدْيَتُهِ الغاليَّةِ عليه.

لقد ابتَعَدَ أحمد في هذهِ المرةِ وجاوزَ السَّهلَ القريبَ، إنه يُرِيْدُ عُشْباً أَكثرَ حتىٰ تَشْبَعَ الخرافُ، وَصَيداً أَوفَرَ من الطيورِ المهاجرةِ، كالدُّرَّجِ والسُّمَّانِ والزَّرْعِيِّ والزَّرْزورِ.... وغيرها

كانَ يتابعُ فِخَاخَهُ الّتي نَصَبَها لِيَصِيدَ الطُّيُوْرَ وَوَضَعَ فيها طُعْماً مُغْرِيّاً.... إِنَّه بارعٌ في ذلك.

كان يُتَابعُ الفِخَاخَ، وقَد دسَها عن غَنَماتِه وَمَعْزَتَهِ الصَّغيرةِ، وتَرَكَ مُهمةَ قِيادةِ القَطيعِ لِكلبِهِ ولكنَّهُ هو الآخرُ تَرَكُ الحيوانات تروحُ وحْدَها، وانشَغَلَ بمُلاحَقَةِ أرنبٍ بريٍ كبيرٍ.

وبعد جَمْعِ صيدٍ وافرٍ تَذَكَّرَ أحمد القَطيعَ، ورأى الكَلبَ يُطَارِدُ الأَرنبَ، وَرَكَضَ يَبْحَثُ عن الحيواناتِ الّتي تَبِعَتْ الجَدْيةَ إلى حيثُ ربيعٍ أَفْضَلَ إنّه بجانبِ حَقلِ الألغامِ المَزْروعَةِ من قبلِ العَدوِ الصهيوني المعتدي، إنه يَطْمَعُ في أَرضِنا وخيراتِ بلادنا وَيُريدُ الانقِضَاضَ على بلادِنا واحتلالَها كما احتلَّ أَرضَ فلسطين الغاليةِ، وجعلها مزارعَ وتجمعاتٍ للمهاجرين من شُذَّاذِ الآفاقِ من صهاينة العالم.

ولكن جيشنا الباسل يقفُ لهم بالمِرصَادِ يحمي الحدودَ وَيشتبك معهم في معارك يومية للدفاع عن الوطن.

بحثَ أحمد عن المِعْزَاة الصَّغيرةَ فلم يَجدها.....!

وذهبَ في كُلِّ مكانٍ وفي كُلِّ اتجاهٍ، فإذا به يَجِدُها وسطَ حَقلِ الألغام.... حيثُ خافَ كثيراً عليها... فكيف له أن يُخْرِجَها، وكُلُّ حَرَكَةٍ تُشَكِّلُ خطراً عليها وعليه وعلى القطيعِ.

كانت الجَدْيَةُ قد نامت بعد أن شَبِعَت ربيعاً طرياً لم يَمَسَّهُ أحدٌ قبلها.

وهي لا تدري أن الموتَ يحيطُ بها من كُلِّ جانبٍ، جَازَفَ الطِّفلُ ودخلَ حقلَ الألغامِ في المنطقة العازلة على الحدود، كان يَتَحَسَّسُ الطَّريقَ ويَبْتَعِدُ عن الحُفَرِ، وَبِكُلِّ هدوءٍ أَمسكَ بها وَضَمَّها إلى حُضْنِه وجَلَسَ الطِّفلُ يُشيرَ إلى كلبِهِ أَنْ يَذهَبَ إلى دَارهم، فوالده يَعرفُ أَنَّ أحمد في خطر

عندما يَرىٰ الكلبَ، وأسرعَ بما يَمْلِكُ من قُوَّةٍ، ولما رأوه وهو يَنْبَحُ وَيَلْهَثُ أيقنوا أن أحمد يحتاجُ المساعدةَ.

رَكبَ والدُهُ حِصانَهُ وأسرعَ كالبَرْقِ والكلبُ أَمَامهُ يُرشدهُ إلىٰ الطَّرِيقِ، حتىٰ وَصَلَ وكَادَ قلبُهُ أن يَتوقَّفَ خَوفاً علىٰ وَلَدِه، وَكيفَ جَازَفَ بِروحِهِ من أَجْلِ مِعْزاةٍ صغيرةٍ؟

وناداه أن لا يَتحرَّكَ.... وَتَبَادَرَ إلىٰ ذِهْنِهِ الاستِعَانَة بالجيشِ العَربيّ السُّوريّ فَذَهَبَ إلىٰ الثُّكْنَةِ العسكريةِ، وشَرَحَ الوضعَ الخطيرَ علىٰ ابنه...

أَسرعَ الجنودُ ومعهم أَدَواتِ الكَشْفِ عن الأَلْغامِ، وفتحوا ثَغْرَةً في حقلِ الأَلغامِ وأَخرجوه سَالماً مع جَدْيَتِهِ، فحمد الله علىٰ سَلَامَتِه، وشَكَرَ الجنودَ علىٰ ما قدَّموهُ من مساعَدَةٍ وجُهدٍ كبيرينِ وعرفَاناً مِنهُ بالجميلِ، قَدَّمَ أبو أحمد لهذه الفِئَةِ الشُّجاعةِ الّتي أَنْقَذَتْ ابنَهُ، أَسْمَنَ خَروفٍ يَذْبَحونَه وَيَأْكُلُونه هنيئاً مريئاً.

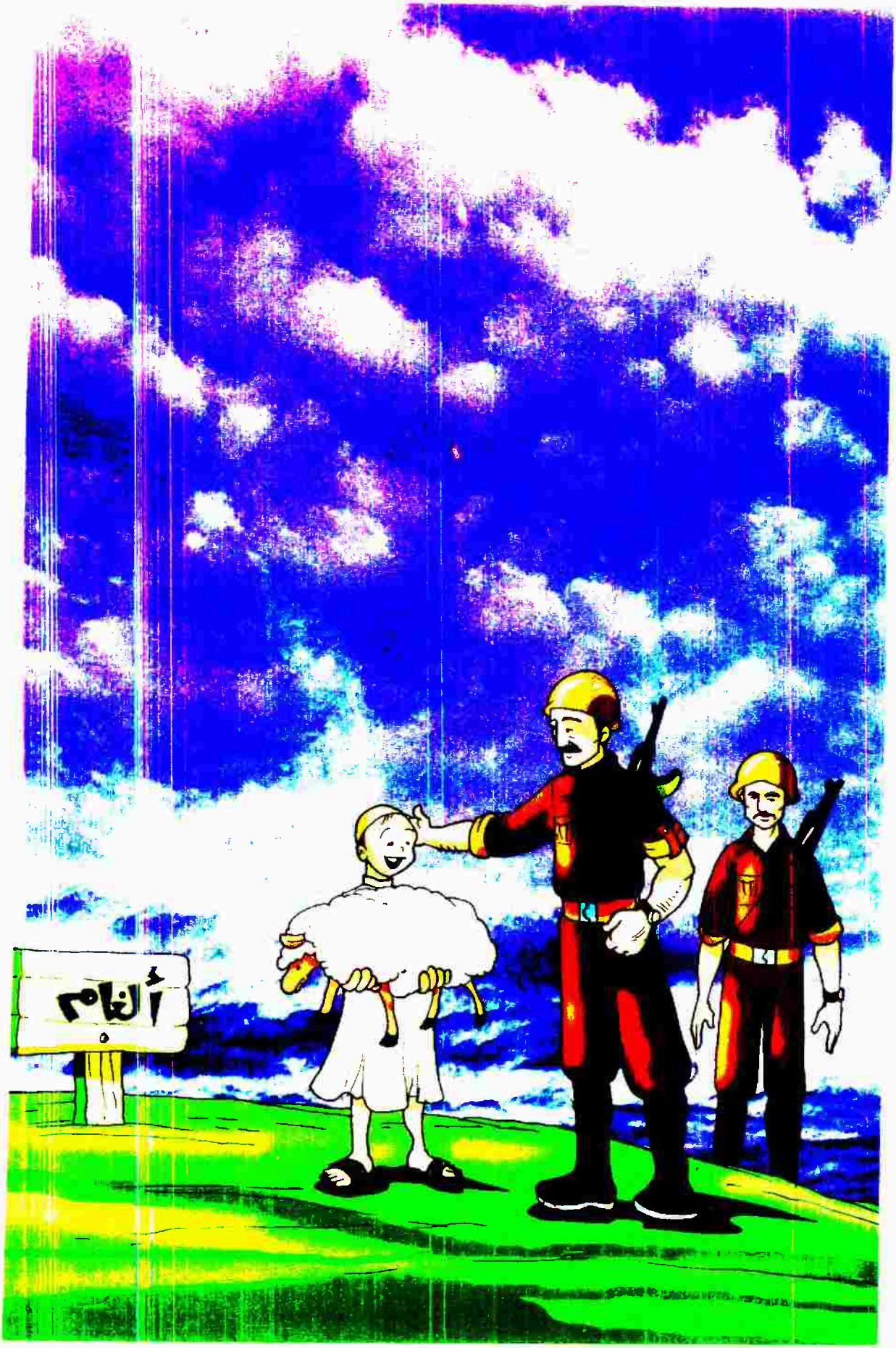
ألغام

المحارب القديم

كانَ مُقَطَّبَ الجَبينِ... لا يَكْتَرِثُ بالأمورِ الصَّغيرةِ يَمْتَلئُ عُنْفُواناً وَحَيَوِيَّةً... رغم كِبَرِ سِنِّهِ لا يُعْجِبُه أَداءُ الشُّبانِ من أبناءِ هذه الأيام لكنه القَويُّ المحبوبُ من أهلِ الوادي جميعاً كان يَتَلَفَّتُ حولهُ عندما يَسيرُ يَغُذُّ الخُطا يرفعُ رَأسه شُمُوخاً ولا أَحد يَدْري ماذا يَدورُ في رَأسِهِ من أَفكارٍ لا يَتَكَلَّمُ كثيراً لا يُحِبُّ المَجَالِسَ وما يُرْوىٰ فيها من قِصَصٍ وأحاديثٍ خَيَالِيَّةٍ، نَزَلَ من دَارِهِ في تَجَمُّعِ اللاجِئِين وَسَطَ الوَادي الكَبير، لا يَبْعُدُ كثيراً عن بُحَيرَةِ طَبَرِيَّة، لقد اتّجهَ نَحْوَها يَبْحَثُ عن زَوْرَقِهِ الصَّغيرِ المُخَبَّئِ بين الأعشابِ الطَّويلةِ حتىٰ لا يَرَاهُ الأَعداءُ، فَالجَوُّ لطيفٌ والبُحيرَةُ هَادِئَةٌ والموجُ خَفيفٌ وهذا يُناسِبَ صيدَ السَّمَكِ.

كانت عُدَّتَه علىٰ ظَهْرِه، فَتَلَفَّتَ أَمَامه وَأَمعَنَ النَّظَرَ وهو يَخْشىٰ من غَدْرِ ذَلكَ المَارِدِ المُتَوضِّعِ فَوقَ أَمْواجِ البُحيرةِ، يَتَرَبَّصُ دَوْماً بِكُلِّ من يَتَحَرَّكَ علىٰ الضِّفَّةِ الشَّرقيَّةِ، إنَّه قَلْعَةٌ عَائِمَةٌ مَحْشُوَّةٌ بالأسلحةِ الثقيلةِ والخفيفةِ من مَدَافِعَ وَرَشَّاشَاتٍ وبَنَادِقَ، إن فيه فَصيلٌ من المُرْتَزِقَةِ الصَّهاينة ذكوراً وإناثاً أصواتهم لا يُحِبُّها البَحرُ ليس فيها رِقَّةٌ وإنسانيةٌ هو يَفْهَمُ لغةَ من يُحِبُّ من البَحَّارَةِ الشُّجعان وهم يُرَدِّدُوَن نَشيدَ (يا بحرنا)

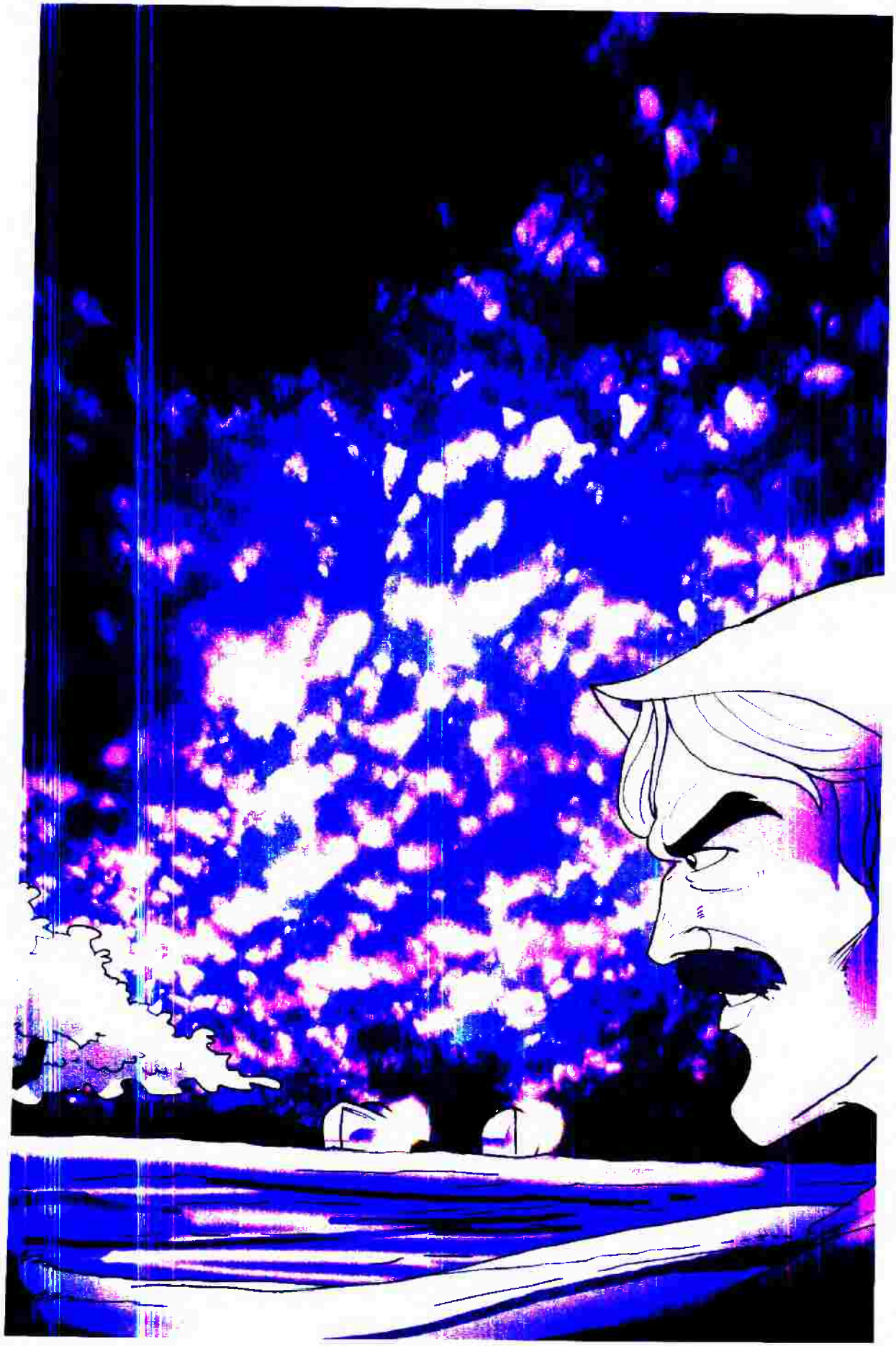

يـــا بحرنـــا الغـــالي منـــك أنتـــشىٰ حـــالي
تعطـــي العطـــا العـــالي يأتينـــــا طـــــوَّالي

لقد هَالَهُ المَشْهَدُ، إنه قادمٌ وها هي أصواتُهم وَقَهْقَهاتُهم وهم يَقْذِفونَ الزُّجَاجَاتِ الفَارِغَةِ إلىٰ البحرِ، لقد شربوا حتىٰ الثُّمالـة وَسَـوفَ يَـشرَبون ماءَ البحرِ يوماً قالها (أبو سليم) وهو الَّذي خَـبَرَ الحيـاةَ حُلوَهـا وَمُرَّهـا، نَهارَها ولَيلَها، بَرْدَها وَحَرَّهَا، شِـبَعَها وَجُوعَهـا، فَرَحَهـا وَحُزْنَهـا، هَمَّهـا وَسَعادَتِها.

إنه المقاتِلُ فَوقَ بِطاحِ الجَليلِ في فلسطين الحبيبةِ، لقد خَـاضَ حُروبـاً مع هؤلاءِ المُحْتَلِّين، وكان في جيشِ الإنقاذِ مع المجاهدين، لا تُرْهِبُه هـذه المَظَاهِرُ والاستعراضات، إنه سَبَّاحٌ مَاهِرٌ يقطع البُحيرةَ جيئةً وذهاباً، لقد نَفَّذَ عِدَّةَ عمليـاتٍ في الـشاطئِ المحتـلِّ وأَلْهَـبَ المُعْتَـدين بـالنيرانِ جـزاءَ ما يَسْتَحِقُّونَه علىٰ أَفعـالِهِم المُجْرِمَـةِ، وهـا هـم قـد اسـتولوا عـلىٰ أرضِ فلسطين بدعمٍ من الإنكليزِ والفرنسيينِ.... وأمريكـا.... وهـم يريـدون الامتداد إلىٰ منابعِ المياهِ فلا يتركون للعربِ مصدرَ ماءٍ يستَفيدون منـه في النهر أو البحيرة.

كان ابنه (خليل) مع أفرادِ الحرسِ الوطني علىٰ الشَّاطئِ الشَّرقي وما أن جاءَ ذلكَ المَارِدُ الجبَّارْ ومعه أسلحة فَتَاكَة حَديثةً حتىٰ استعدَّ الجميعُ للتصدّي له.

لقد حَطَّمَ زَورقَ الشَّيخِ بقنبلةٍ من مدافعهِ وصاحِبُه ينظرُ ويمْتلئُ غَضَباً وَحُزْناً علىٰ زَورقِهِ، إنَّهُ ما تبقىٰ له من حطام الدُّنيا، فَماذا يَفعل....؟

واحْتَدَمَتَ المعركةُ بين الموقعِ الرَّابضِ علىٰ الشاطئِ في قريةِ (الكُرْسَي)، كانَتْ الرَّصَاصَاتُ تَنْزَلِقُ عن صَفَائِحِه القَويَّة فلا تُؤثِرُ بِه، ويَروحُ وَيَجيءُ كلَّما سَقَطَتْ القَنابلُ المُتَفجِّرَةُ عليه.

كانَ (خليل) يَتَمَسَّكُ بالرَّشَاشِ الرَّابضِ في المِتْرَاسِ وَيُصْلي الزَّورَقَ رَشَقَاتٍ حَاميةٍ مُلْتَهِبَةٍ، وَلَكِنَّ الزَّورَقَ مازالَ يُرْسِلُ إليهم القَنَابِلَ الَّتي تَحْرِقُ كُلَّ ما حَولهم.

قَالَ المُجاهِدُ الكَهْلُ: لا بُدَّ أَن أَقُومَ بعملٍ ولو علىٰ روحي!

دَخَلَ مِنَ الطَّرِيقِ المَسْتُورِ حَيثُ الموقعُ المُشْتَبَكُ مع الزَّورَقِ.. فَعَرَفَهُ الجنودُ أَنَّه (أبو خليل).

طَلَبَ من قَائِدِ المَوْقِعِ طَلباً سرياً، فَأَدَارَ له وَجْهَهُ وانْشَغَلَ في قيادةِ المَعْرَكَةِ مع المَرْكَبِ الحَربيِّ الخطيرِ.

قال له: أَرِحْ نَفْسَكَ يا عَمَّ.... واتْرُكْنَا نَتَعَامَلُ مَعَهُ فَسَوْفَ نُغْرِقُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ هَو ومَنْ يَحملُ من المعتدين.

فلم يَقْتَنِعْ منهم، وأرادَ أَنْ يُشْفي غَليلهُ بِنَفْسِهِ لقد حَطَّموا ، ورَقَهُ، وَأَحْرَقوا زَرْعَهُ الَّذي أَعطاهُ جُهْدَه وَتَعَبَهُ طِيلَةَ الأَشْهُرِ الماضيةِ وقَتَلوا جَوَامِيسَهُ الّتي وَرَدَتَ لِتَشْرَبَ على الشاطئِ.

كَانَ خَائِفاً على ابنه (خليل) إِنَّه بَطَلٌ مقدامٌ يَتَصَدَّىٰ وَبِكُلِّ جُرْأَةٍ لمقارعةِ هذا اللَّعين، ومَنْ فيه مِنَ المستهترين.

إِنَّهم يُريدون إِعدامَ الحياةِ على الطَّرَفِ الشَّرقِيَّ للبحيرةِ لِكي الحياةَ باقيةٌ فيها بأَراضيها بسمائِها ومائِها وتُرَابِها وحَيَوانَاتِها ونَسَائِمِها العَذْبَةِ وموجُ البحيرةِ المسرعِ إِلىٰ الشَّرقِ ومعه السَّمَكاتُ السَّمينات، وَهنَّ يَتَجَمَّعْنَ هناك دون سائِرِ البُحيرةِ، إِنَّه السِّرُّ الإِلهي ، ويعطي الخيرَ لمن يشاءُ من عبادِه الصَّالحين.

كان أبو خليل يترجى آمِرَ الموقعِ حتىٰ يَأْخُذَ مكان ابنِهِ، أَرادَ إِقناعه بِأَنَّهُ يَرمي جَيِّداً إِنَّه يُصيبُ الإِبرةَ لكن القائدَ أوعزَ بوضعه في مكانٍ آمنٍ خوفاً عليه، وهو لا يهابُ ولا يَرْهَبُ الموتَ، ثُمَّ استدارَ إِلى خَازِنِ الأَسلِحَةِ، وطَلَبَ منه قنبلةً فهو يعرفُ كيف يتعاملُ معها، وكيف يَصِلُ إِلىٰ الزَّورَقِ دونَ أَنْ يَشعُرَ أَحَدٌ به، إِنَّ لَهُ تَجَارِبَ سَابِقَةً في رُكوبِ الموجِ

وتحتَ الماءِ، وسوفَ يُحَطَّمُ الأعداءَ في داخلهِ بهذه القنبلةِ...

قال: أنا بعونِ الله سوفَ أَنْتَصِرُ عليهم، فَأَعينوني علىٰ ذلك، وساعِدوني في إِرْوَاءِ غَليلي.... ولكنَ غَليلَهُ اِشْتَفَىٰ وَمَرامَه تَحَقَّقَ عِندما رأىٰ ما يَسُرُّهُ لقد رَفَعَ رَأْسَهُ عَالياً وَهَلَّلَ الجنودُ وكَبَّرُوا، الله أَكبرُ كانت الطَّائِراتُ العَربيَّة السُّوريَّة، تُسَيطِرُ علىٰ سَماءِ البُحيرة، وَتَصولُ وَتَجولُ فوقَ أَرضِ المعركة، وَتُغيرُ علىٰ الزَّوَارقَ الحَربيَّةَ وغيرِها مِنَ الزَّوارقِ الأُخرىٰ الّتي تُغَطِي سَطحَ البُحيرةَ فَتُلْهِبُها نِيراناً وَقَنابِلَ وَبعضُها يحترقُ ومنها ما يَغْرَقُ، وامْتَدَ القصفُ إِلىٰ الشَّواطِئِ الغَربيَّةِ والجُنُوبيَّةِ، حيثُ المواني ُ والمدنُ مِثلَ طَبَريّة وَسَمَخ وَبقيةِ المستعمراتِ فَحطَمَتْها وأَلْهَبَت فيها النيران .....

كانَ البطلُ الطَّيارُ (غازي الوَزْوَازي) علىٰ طائِرَتِه الميغ (١٧) يصولُ ويجولُ يُطَارِدُ الزَّورَقَ المعتديَ فَيُلْهِبُه حُمَماً مُتَفَجِّرَةً، فَيُصِيبُه وَيُعَطِّلَهُ ويَقْتُلُ من فيه... فَيَغْرَقُ إِلىٰ قاعِ البُحيرةِ ثُمَّ يَسْتَديرُ إِلىٰ بَقيةِ الزَّوارِقِ والمراكبِ والطَّوافاتِ يَهجمُ عليها كَالسَّبعِ الهصورِ وَرِفاقُهُ في السِّربِ قد أَبْلوا بَلاءً حسناً فَارتَفَعْتَ الصَّيحاتُ وَلَوَّح النَّاس بالبيارقِ للطيارين البواسلَ وقد انْتَشوا فَرحةِ النَّصرِ، ولكنَّها وللأسف فلم تَكْتَمِلِ الفَرحَةُ وَخانَتْه آلاتُ

طائِرَتِهِ ولم تَنْهَضْ من كَبْوَتِها دَاخِلَ الماءِ وَأَخَذْتَ معها البَطَلَ غازي وهي تَغْرَقُ في مياهِ البُحَيرةِ وحاله تقول:

ولست أبالي حين أقتل مؤمناً على أي جنب كان في الله

وكَأَنَّ البحيرةَ أَحَبَّتْهُ فَأَخَذَتْهُ وَجَذَبَتْهُ إلىٰ لُجَّتِها وفَاضَت روحه الطَّاهِرَةُ بِدَاخِلها فَزَادتها طَهَارةً وَنَقَاءً، بعدما حاولَ الأوغادُ تَدنيسَها وهي الّتي احْتَضَنَتْ السَّيِّدُ المسيحُ وَغَسَلت أَقدَامَهُ الطَّاهِرَة وفيها تَعَمَّدَ المؤمنونَ من الحواريين والأَتْباعِ فكل قَطرةِ ماءٍ فيها تَحكي حَكَايةَ الرُّوحِ القُدْسي وأَتباعاً لَهُ وهو يُخَلِّصُهم من حكمِ الظَّالمين الرَّومان وأَباطِرَتهم وغُلاةُ اليهودِ المتآمرين علىٰ البشريةِ.

وكان أبو خليل أَوْلَ الوَاصلين إلىٰ الشَّاطيءِ المقابلِ للطائرةِ ورمي ثِيابَهُ وَنَزلَ يُريدُ نَجْدَتَه ولما وَصَلَ إليه ويا هول ما رأىٰ!

نسرٌ بصُوَرةِ البَدرِ، داخلَ المقصورةِ الزُّجاجيةِ وقد غَمَرَتْه المياهُ ومازالَ إِصبعه علىٰ زِنَادِ رَشَّاشِهِ وحاولَ الشَّيخُ فَتْحَ المقصورةِ وإِخراجِ البطل فلم يَقْدِر، فهي تحتاجُ إلىٰ آلاتٍ ومَعَداتٍ للتعامل معها، فعادَ أَدراجَهُ إلىٰ الشَّاطيءِ وقد هاله المنظرُ إِنَّه المقدامُ الَّذي ضَحَّىٰ بِروحِه فِداءَ وَطَنِه وهو يَذُودُ عن الحمىٰ الغالي.....

ولما رأىٰ الجنودَ علىٰ الشَّاطئَ أخبرهم بما رأىٰ فَأَسرعوا لإِحضَارِ

ما يَلْزَم من أَدواتِ الإِنقاذِ واستقدموا آلات سحبٍ وروافعٍ وكوابلٍ فأَخْرجوا البطلَ غازي مُكَلّلاً بالغَارِ.... وَجَروا مركَبَه المُتَعَثّر من كَبْوةٍ قاتلةٍ.

هبت الريح الشرقية

تهيّأَ الزَّرعُ للحصادِ، إنها السَّنابلُ المَحْشُوَّةُ قَمحاً ذهبياً، كانت كُلُّ سنبلةٍ تَتَمايلُ مع أختها وتَتَفاخَرُ أَنَّ بها حبات أكبر وأكثر.....

أما الَّذي زَرَعَها واعتنىٰ بها وَحَماها مِنَ الطُّيورِ والحيواناتِ، إِنَّهُ صاحبُ الهِمَّةِ العاليةِ، الّتي وَهَبها اللهُ تعالىٰ لهُ جَسَداً وفِكراً، فَعَبَده وصلّىٰ لهُ شُكراً علىٰ نِعَمِه.

لقد عَلَّمَتْهُ الحياةُ وَأَيّامُهَا أَشياءً كثيرةً، عَرِفَ الصَّالِحَ مِنَ الطَّالِحِ بِفِطرَتِهِ الّتي فَطَرَهُ اللهُ عَلَيها، عَرِفَ الخَيرَ مِنَ الشَّرِّ، وَالصَّدِيقَ مِنَ العَدو... عَرِفَ الطَّيِّبَ مِنَ الخَبيثِ، فَتَجَنَّبَهُ وَأَرْشَدَ النَّاسَ إِلىٰ تَجَنُّبِهِ، وَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يُبْعِدَ عَنْهُ وَأَهلِهِ الشَّيطَانَ وَأَفْعَالَهُ. كَانَتْ السَّنَابِلُ قَد اصْفَرَّتْ، وَتَهَيَّأَتْ لِلْحَصَادِ، وَهُوَ في كُلِّ يَومٍ يَتَفَقَّدُها، وَيَدْعُو رَبَّهُ أَنْ يَحمِي لَهُ هَذِهِ الغَلَّةَ الوافِرَةَ مِنْ غَدْرِ الأَعداءِ وَأَذاهُم.

فَفي كُلِّ عَامٍ كَانَ العَدو يَرْقَب الزَّرْعَ وَقد حَانَ حَصَادُهُ، فَتَراهُم وَمِنْ شِدَّةِ حِقْدِهِم يُشْعِلُونَ النَّارَ، ويُوجِّهُونَها باتِّجاهِ زُرُوعِ القُرىٰ، وَيُرسِلُونَها مَعَ الرِّيحِ الغَربيَّةِ الّتي تَحمِلُهَا إِلىٰ حَيثُ الحُدود، وهيَ تَسرِي بِالهَشيمِ الوَاصِلِ إِلىٰ حُقُولِ الفلّاحين.....

كانوا يَتلهّون وَيَضحَكُونَ وهُم يَرونَ النِّيرانَ تُسْرِعُ نَحوَ الشَّرقِ تَأْكُلُ الأَخْضَرَ وَاليابِسَ...

وَكَأَنَّها مُتآمِرَةٌ مَعَهُم وَكُلُّهُم مِنْ مَعْدِنٍ وَاحِدٍ، هُمْ يُرِيدونَ الأَذَىٰ وَالمَوتَ لِغيرِهِم، وَهيَ تَحرِقُ وَتُدَمِّرُ وَتترُكُ النَّاسَ بِلا رِزْقٍ أَو مَؤونَةٍ.

وَتَراكَضَ النَّاسُ عِندَمَا رَأَوا لَهِيبَها يَتعالىٰ، وَأَلسِنَتَها تَطَالُ كُلَّ شَيءٍ أَمَامَهَا....

حَمَلوا المَعَاوِلَ وَالفؤوس وصَفائِحَ المَاءِ، وَرَكَضَ الجَميعُ رِجالاً ونِساءً، صِبياناً وَبَنات، حَتَّىٰ عَنَاصِرَ الجَيشِ قَد اسْتُنْفِرَتْ، وَجَهَّزَتْ آلِيَّاتِهَا كَي تُشَارِكَ فِي إِطْفَاءِ الحَرِيقِ المُفْتَعَل، وَأَخَذَ الفَلَّاحُونَ يَتَضَرَّعُونَ إِلىٰ اللهِ كَي يَقِيهِم شَرَّ هَذِهِ الكَارِثَةِ المَاحِقَةِ الَّتي أَشْعَلَها العَدو إِنَّهم يُرِيدونَنا أَنْ نَمُوتَ جُوعاً وَنَعْرَىٰ وَنَيأَسَ وَنَخَافَ وَنَنْزَحَ عَنْ أَرضِنَا لِيَسْتَولُوا عَلَيها، صَلَّىٰ الجَمِيعُ صَلاةَ الظُّهْرِ فِي الحُقُولِ وَدَعوا رَبَّهم أَنْ يَرُدَّهَا عَنْهُم وَعَنْ رِزْقِهِم.

قالَ الشَّيخُ الكَبيرُ: إِنَّ الرِّيحَ الغربيةَ تَحمِلُ مَعَها الخَيْرَ وَالعَطاءَ، فَكيفَ سَخَّرَها هؤلاءِ لِحَمْلِ الأَذَىٰ وَالشَّقاءَ؟ وَأَشَارَ عَلَيهِم أَنْ يَعْمَلوا فَاصِلاً كَي لا تَطالَ زُرُوعَهُم، فَحَصَدوا سَهْماً طَويلاً أَمَامَها، وَهيَ تَتراكَضُ نَحوَهُم تُرِيدُ الزَّرْعَ فَهُوَ طعامُها المُفَضَّل.

وَكانَ الخَلاصُ، فَرَبُّكَ أَكبَرُ مِنْ مُؤامَراتِهِم، وَتَحوَّلَت الرِّيحُ بِاتِّجاهِهِم، وَصارَتْ تَهُبُّ مِنَ الشَّرْقِ باتِّجاهِ الغَرْبِ وَراحَتْ تُحرِقُ حُقولَهُم وبَساتِينَهُم، وَارْتَدَّتْ إِلَيهِم فَقالَ الشيخُ: الحَمدُ لله الَّذي خَلَّصَنا مِنْ أَذاهُم. ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

وَحَثَّهُم أَنْ يُسْرِعُوا بِالحَصادِ كَي يَتَخَلَّصُوا مِنْ هَذا الخَطَرِ الدَّاهِمِ.

الشهيد البطل المساعد علي

كَانَ يَدخلُ المَطعَمَ الشّعبيَّ في القَريَةِ المُجاوِرَةِ، إنَّهُ أَحدُ عَنَاصِرِ السَريَّةِ المُقاتِلَةِ المُرابِطَةِ في حِصْنِ تَلِّ النَّيرَبِ، غَيرَ بَعيدٍ عَنْ شَاطِئِ بُحَيرَةِ طَبَريَّة، وَهُو يُشْرِفُ عَلَىٰ البُحَيرَةِ وَمُسْتَعمَرَةِ (عَين كيف) الّتي أَقَامَهَا الصَّهَاينَةَ المُحْتَلّونَ فِي فلسطينَ المُحْتَلَّةَ. وَعَلىٰ خُطُوطِ الجَبْهَةِ الحَربيَّةِ مَع سُورية. وَلا يَمرُّ يومٌ إلّا وَيحصَلُ اشْتِبَاكٌ بَينَ هَذا المَوقِع وَقُوَّاتِ العَدو، كانَ يَرُدُّ بِشِدَّةٍ عَلىٰ القُوَّاتِ المُعْتَدِيَةِ وَيُمطِرُ الزَّوارِقَ الحَرْبِيَّةَ بِنِيرانٍ كَثِيفَةٍ مِنَ المَدافِعِ وَالرَّشَّاشاتِ، وَيُوقِعُ بِها أَشَدَّ الإصاباتِ وأَفْدَحَ الخَسائِر.

كان المساعد علي يَنْتَهزُ الفُرصَةَ في وقتِ هُدوءِ الجَبْهَةِ فَيَتسَلَّقُ ممراتٍ صعبةٍ في الجبالِ المُشْرِفَةِ علىٰ البحيرةِ، وَيَتَّجِهُ نَحوَ القَريَةِ العَامرةِ العَاليَةِ علىٰ مُرْتَفَعاتِ الزَّوِيَّةِ الشَّامِخَةِ كالطودِ تِجاهَ العَدو الصَّهيوني المُتَغَطْرِسِ، وهناك تَرْبُضُ المدافعُ السُّوريةُ الّتي كانت تُكِيلُ الصَّاعَ صَاعين للمدافعِ المعتديَّةِ علىٰ قُرانا الآمنة وقواتِنا المُدافِعَةِ عن حُدودِ الوَطَنِ الغالي.

كان المساعد علي يَحْظىٰ باهتمامٍ كبيرٍ عندما يَدْخلُ إلىٰ المَطْعَمِ الشَّعبيّ في القريةِ الوادعةِ حيثُ تُقَدَّمُ لَه أَطباقَ البيضِ المقليّ بالسمنِ العربيّ

والبطاطا المُحمرة واللحم المُشويّ والخضارِ المَطْبوخَةِ ويَتَذَوَّقُ الفَتَّةَ اللَّذيذةَ، في قرية سكوفيا العربيَّة.

كان أبو تركي صاحبُ المطعمِ يفرحُ بزيارةِ هذا الزَّبونِ (المُدْهِنِ)، حيثُ يَدفع التَّكاليفَ نقداً مع الإكْرامية، فيأكلُ عن شخصين. إنَّه رجلٌ رياضيٌّ وَحَازَ على بُطولَةِ رمي القُلَّةِ في الجيشِ العربيّ السُّوريّ، كان يتذوقُ بِشَهيَّةٍ وَيُطْلِقُ النُّكاتَ في حديثِهِ مع صاحبِ المطعمِ والعاملين به والزَّبائن.

إنَّه يَتَمَتَّعُ بجسمٍ مُمْتَلِئٍ وقامَةٍ شَامِخَةٍ، وَوَجْهٍ ضَاحِكٍ مَائِلٍ للحُمْرَةِ. وهو ابن العائِلَةِ المَدنيَّةِ من قريَّة قُربَ مَدينةِ القُنيطرة وقد تربى في وَسَطِ مجتمع يُقَدِّسُ البطولةَ والشَّجاعةَ والإقدامَ.

كان عاملُ المطعم يختارُ له كُرْسِيًّا قوي التَّحَمُّلِ حتى لا يَتَحَطَّمَ تَحْتَهُ لأن كل الكراسي عنده خَشَبِيَّةٌ قَليلَةُ المقاومةِ والتَّحمُّلِ لِمِثْلِ جسمِ المساعدِ علي.

كان يحضرُ إلى المطعم لتناولِ وَجَبَاتِه كل يومين مرة ويأكلُ أغلبَ ما في المطعمِ من اللَّحْمِ والبيضِ وغيره ويشرب الشَّاي الَّذي يحبه بكثرة.

أما صاحب المطعم، أبو تركي فكان يَفرحُ لقدومه، يدلله ويمازحه، وهو معروف كَبَطلٍ رياضيٍّ في الجيش العربي السُّوري، وصاحب النَّفْسِ

المَرحَةِ والنكتةِ الجميلةِ الحاضرةِ.

كانَ أبو هاني الرَّجُل الفلاحُ المُطَّلِعُ والمُتَتَبِّعُ للأحداثِ والَّذي استُشْهِدَ في قصفِ طائراتِ العّدو الصِّهيوني قبل نَكْسَةِ حُزيران بشهرين فَيُبَادِرُ هذا إلىٰ مُمَازَحَتِه، وَيُسَرُّ بِلقائِه فيقول له: كَفَاكَ أَكلاً يا مساعد علي لقد أَفرغْتَ ما في المطعم من الغذاءِ، فَيَرُدُّ عليه: أَكْلَ الرِّجالِ علىٰ قَدْرِ أَفعالِها، فيقول أبو هاني: ماذا فَعَلْتَ؟ هل أَغْرَقْتَ الزَّورقَ الحَرْبيَّ المُعادي في البحيرة؟ فيقول له: سوفَ ترىٰ، ولن يذهبَ هذا الطَّعامُ سُدىً إنه في مَعِدَةِ رجلٍ لا يخافُ الموتَ إن شاء الله.

وعندَ الغروبِ يَتَّجِهُ نحو موقعه عند البحيرة منحدراً في طريقٍ تُرابيَّة، يَجْتَازُ الحقولَ المزروعةَ بالقمحِ وحوله الخُضْرَةُ والعصافيرُ المُغَرِّدَةُ بأَلحانها الجميلة.

لقد شَدَّ انْتِبَاهَهُ في الطريقِ مجموعةٌ مُؤَلَّفَةٌ من بعضِ الفتياتِ يَحْمِلْنَ صَفَائِحَ الماءِ علىٰ رُؤوسِهِنَّ وَيَتَّجِهْنَ إلىٰ تَجَمُّعٍ سَكَنِيٍّ قُرْبَ القَرْيةِ، إِنَّه يُصَادِفُهُنَّ دائماً، ولكن في هذه المرةِ قد انْجَذَب بِشِدَّةٍ إلىٰ فتاةٍ جميلةٍ مَمْشُوقَةٍ، عيونُها أَخّاذَةٌ فقال في نَفْسِه: يا الله... ما أَجْمَلَها!

ها هو يَسْتَجْمِعُ قواهُ وقد بَدا ضعيفاً أمامها، وهو المقاتلُ العنيدُ الَّذي لا يخافُ الموتَ فَتَقَدَّمَ وطلب منها شُرْبةَ ماءٍ، وَبِكُلِّ لُطْفٍ مَمْزُوجٍ

بالاحترام والاهتمام والأدب، وَقَفَتْ وَأَنْزَلَتْ وَفَتَحَت صَفيحةَ الماءِ كي يَشْرَبَ، حقاً لقد كان عَطِشاً ولكن لِرُؤْيَتِها أولاً ولِلْتَمْعُّنِ في وجْهِها الجميلِ.... وعَيْنيها البراقَتَين.

كانَ فَمُهُ يَشْرَبُ الماءَ. وَعَيْناه علىٰ الفتاةِ البَدَوِيَّةِ وهي تَرْمُقُهُ بِكُلِّ اهتمامٍ ولا يَكادُ يرتَوي لقَد شَرِبَ كثيراً أو يَتَظاهر بالشُّربِ.

وعندما انتهىٰ، شَكَرها وسأل: ما أسمُكِ يا جميلة، فضحِكت وأجابت يُسرىٰ وكانت الفتياتُ الأُخْرَياتُ يَتَهامَسْنَ وَتَلْمُزُ إحداهنَّ للثانية تَعَجُّباً وَحيرَةً واستِغْراباً منهن علىٰ اهتِمامِه وملاطَفَتِه لها رغم أَنَفَتِها وكِبرِيائِها. ها هو يَستَجْمِعُ قواهُ إنَّه الرَّجل العسكري الصَّلْب، الَّذي يجب أن يبدو قوياً في كل مَوَاقِفِهِ، فكيف وقد أصابه الضَّعْفُ أمامَ هذه الفتاةِ السَّمراءِ الجميلةِ.

فوقف بِقَامَتِه الشَّامخَةِ وشكرَ الفتاة علىٰ حُسنِ ملاطَفَتِها له، وتَوَجَّهَ غرباً باتجاهِ المُنْحَدَرِ الموصلِ إلىٰ المَرْبَضِ الَّذي يَتَمرْكَزُ فيه، جانب البُحيرة، وكانَ يتصارع مع هَواهُ وَمَشَاعِره الّتي اسْتَحْوَذَت عليها الفتاة، وهو الرَّجُلُ الطَّيبُ ذو المشاعرِ والانفعالاتِ المُرْهَفَةِ.

تمالكَ المساعدُ نَفْسَهُ ودخلَ عندَ مَغيبِ الشَّمسِ معسكرَ العتيدَ فوجدَ فيه حالةً من الاستنفارِ القصوىٰ، فأسرعَ نَحْوَ آمرِ الموقعِ الملازم

الأول (محمود) وقد تجهزَ للقتالَ وَلَبِسَ عُدَّةَ الحَربِ، وكان يَتَخابَرُ مع القيادةِ الّتي أَعلمتهُ بِنَوايا العَدو وَعَزْمِهِ الاعتداءَ علىٰ المَخافِرِ السُّوريَّة الّتي تَتَمرْكَزُ شَرقَ البُحيرة، لأنَّها تُشَكِلَ مَصْدَرَ تَهديدٍ وَخَطرٍ علىٰ زَوارِقِهِ في البُحيرةِ، فَأَعْلَمَهُ المُلازِمُ الأولُ بِضَرُورِة إعلان الاسْتِنْفَارِ وَتَوَجَّبِ الحَذَرِ الشَّديدِ.

تَوجَّهَ المساعدُ علي إلىٰ العناصرِ وقادةِ الفَصائلِ وِأعْطاهُم الأوامرَ بالاستِعدادِ لِصَدِّ تَقَدُّمِ العَدو إذا تَجَرَّأَ علىٰ مُهاجَمِتِهم.

وكان من بين أَفرادِ الموقعِ عَددٌ من عَناصِرِ الحرسِ الوطني من أبناءِ المنطقةِ، يَقِفونَ جَنْباً إلىٰ جنبٍ مع أفرادِ الجيشِ العَرَبيِّ السُّوري. وقد عَرَفَ أحدُهم وهو من أَهلِ التَّجَمُّعِ حيثُ تَسْكُنُ فيها الفتاةُ الّتي سَقَتْه شُربةُ الماءِ وأَحبها في آن واحدٍ.

وذهبَ إلىٰ مَرْبَضٍ فيه رشاشٌ يَتَمَتْرَس فَوقَهُ المُتَطَوِّعُ حَسنْ واخْتلىٰ بِه وَسَأَله عن الفتاة (يُسرىٰ) وَقَلْبُهُ يَخْفُقُ حُباً لها عندما يَتَذَكرُها وليس فيه نَبضَةُ خَوفٍ من الهجومِ المُتَوَقَّعِ علىٰ مَخْفَرِهِ من قبلِ قواتِ العَدو الصِّهيوني.

وقد تَهَلَّلَتْ مَشاعرُ الجُنديِّ بالفرحِ، كيف لا وَقَائِدُهُ المباشرُ يَسْتَشيرُه كي يَصيرَ صِهْراً لِقومه، فيصبحُ صاحبَ حظْوَةٍ عِندَه.

قال له: يا سيدي إنها خيرُ من وقعَ عليها اختِيارَكَ فهي مُهَذَّبَةٌ ذَاتُ أخلاقٍ حَسَنَةٍ، وَسَليلةُ عائِلَةٍ لها حَسَبٌ وَنَسبٌ، فَفَرِحَ المساعدُ علي بما قَالهُ الجنديُّ حَسنْ وَشَكَرَهُ وَشَربَ الشَّايَ عِندهُ وذهبَ ليتَفَقَّدَ باقي المواقعِ في الحِصْن.

لم يناموا تلك الليلةِ، والقيادَة تَتَّصِلُ بهم وتَضَعُ الخُطَطَ للرَّدِّ علىٰ هذا الاعتداءِ المُتوَقَّعِ ولما طَلَعَ النَّهارُ، هَدَأَ استِنْفارِهم وذهبَ أَغْلَبُهم لأَخذِ قسطٍ من النوم.

لكن عيونَ المساعدِ علي لم تَنَمْ فهو يُفكرُ بأَمرين أولهُما، كيف يَرُدُّ العّدوانَ ويهزمُ العّدو وثانيهما، كيف له أن يَكْسِبَ وُدَّ الفتاةِ (يُسرىٰ) وأهلُها وأن يُقْنِعَ والدته بالزواجِ منها وهي تُرَتِّبُ أمرَ زَواجَه من ابنةِ خَالته.

لم يستطعْ مغادرةَ الموقعِ لِخُطُورةِ الموقفِ وَشِدَّةِ الاستنفارِ، ولكنه أرسلَ الجنديَّ (حسن) في إِجازةٍ سريعةٍ، كي يَسألَ الفتاةَ ويَطَّلِعَ علىٰ رَأيِها سراً.

وعندَ المساءِ تَقَدَّمَ زورقُ العّدو تجاهَ المَخْفَرِ (الحصن) وبدأَ يُطلقُ النَّارَ علىٰ الرُّعاةِ الرَّاجِعين مع قطعانِهم من المرعىٰ، وعلىٰ الصَّيادينَ الَّذينَ استَعَدُّوا للنزولِ إلىٰ مياهِ البُحيرَةِ لاصطِيادِ السَّمكِ من لُجَّيها فهي تَهبَ

خر والحياة لهم ولأولادِهم. وها هو يُحطِّمَ زوارقهم ويقتل بعض الصيادين، ويُزْهِقُ أَرْواحَ الرُّعاةِ وبعضَ قِطْعانِهم، ويَهْدمُ بيوتاً في قرية (الكُرْسي) على الشاطئ، وَيُشَرِّدَ أَصحابَها وقد لاحَ في الأُفُقِ على صفحة الماء زورقٌ آخرُ يَدْعَمُ الزَّورقَ الأَوَّلَ.

رأى أفرادُ الحصنِ ما جرى من اعتداءٍ على المواطنين وأرزاقهم. فسارعَ أن أعطى قائدُ السَّريَةِ الأوامرَ للمساعدِ علي الَّذي كان ينتظرُ هذا الأمر بفارغ الصَّبْرِ.

وأطلقَ أفرادُ الحصنِ القنابلَ من المدافعِ والطَّلقاتِ النَّارية من الرَّشاشاتِ فأَلهبتْ الزَّورقَ وأَصابتهُ إصاباتٍ مباشرةٍ. واشتعلت فيه النَّيران وأُصيبَ عددٌ من أفرادِهِ فَقُتِلَ بعضُهم وَجُرِحَ الآخرون. فتعالت صيحاتُ الجنودِ بالتَّهليلِ والتَّكبيرِ فرحين بنصرِهم على هذا المعتدي.

تَقَدَّمَ الزَّورقُ الثاني مُساندِاً الزَّورقَ المعطوبَ وأخذَ يُطلقُ النَّيرانَ حوله وعلى المخافرِ خَاصَّة (الحصن) في سبيل التهرب. ثم قَطَرَ الزَّورقُ الثاني الزَّورقَ الأَوَّلَ المعطوبَ. وسحبهُ عبرَ البُحيرةِ باتجاهِ الغرب، حاملاً قتلاه وجرحاه نحو مدينة طبريَّا.

فتوقَّعَتْ الحاميةُ المُدافعةُ هجوماً وشيكاً كما علِموا من تهديداتِ إذاعةِ العدو.

لم يَنْسَ المساعدُ علي المهمةَ الّتي أَرسلَ بها الجُنديَّ حَسن، ناداهُ، فأسرعَ هذا إليه فَرِحاً بما حمل من بِشارةٍ للمساعدِ، وقال له: لقد حَمَلْتُ أَخباراً سارةً فَنَبَّهَهُ المساعد أن يَكْتُمَ السِّرَ، فَسَكَت الجنديُّ حتىٰ أشار إليه بِهَمْسٍ فأعلمه أنه قابلَ الفتاةَ (يسرىٰ) وقد تَهَلَّلَتْ سَرَائِرُها بما سمعتَ وبدا علىٰ مَبْسَمِها الفَرَحُ.

وهذا يعني أَنَّها مَوافِقةٌ علىٰ اختيارِك لها، وبقيَ أن تَأْخذَ مُوافَقَةَ والِدَتِك وأهلَك، حتىٰ تأتي بهم لِخطبتها لك من أهلها وأترك أمر مُوافَقَةِ والِدِها عليَّ فإن لي عليه دَالَّةً ومشورَةً فَتَهَلَّلَ المُساعد فرحاً بما سمع، ولكنه تَذَكَرَ أَنَّ والدَته كانت تَلِحَّ عليه كي يَخْطِبَ ابنة خَالته الّتي تَنْتَظِرُهُ منذُ سنين.

وَسَمِعَ صَوتاً يُنادِيهِ من خَارجِ مركَزِهِ، فإذا الملازمُ أَوَّل (محمود) فالقائدَ يَتَفَقَّد جَاهِزِيَّةِ الحصنِ استعداداً لما يَتَهَدَّدَهم من خطرِ الهُجُوم المُرْتَقَبِ حَيَّا المساعدُ قائِدَه تحيةً عسكريةً ملؤها القُوَّةَ والاحترام، فردَ عليه الملازم التحية وطلب منه مُرَافَقَتَه في جولتهِ حولَ الحصنَ، وأَثناءَ ذَلكَ سأَلَ الرّقيب الَّذي يُرَافِقُهما: لماذا يا سيدي يَسْتَقْتِلَ هؤلاءِ الأعداءَ علىٰ مياهنا وأرضنا؟ أراد المساعدُ علي أن يُجيبَه علىٰ سُؤالِهِ؛ لأَنَّه يَعتبرَ نَفسهُ قادراً علىٰ الجوابِ عن هذا السؤالِ فقد قرأَ كِتاباً عن بروتوكولات

حُكماء صهيون وأطماعهم في الوطنِ العربيِّ وخاصة (فلسطين) والبلاد المجاورة لها.

شعرَ الملازمُ (محمود) برَغْبَةِ المساعدِ بالجوابِ على السؤالِ. فطَلَبَ منه أَنْ يُجيبَ عن تَساؤُلِ الرّقيب فقال: لا يَجوزُ يا سيِّدي أَنْ أُجيبَ والقائدُ موجودٌ فأَنْتَ أَعْلَمُ بالجوابِ.

قالَ الملازمُ: أُريدُ أَنْ أَسمَعَ جَوابَكَ يا مُساعد علي إذا كانَ كافياً ومُقْنِعاً للرقيب.

قالَ المساعدُ: فَلِماذا هَذا التَكالُبُ عَلى بِلادِنا، فقد احتَلَّ هؤلاء الأَوغادُ فِلسطينَ عام (١٩٤٨) بَعدَ أَن قَتَلُوا وَشَرَّدوا أَهْلَها بِكُلِّ وَحشيَّة وَهُم يُرْسِلُونَ في طَلَبِ المزيد مِنَ المُستوطِنين وَيَسْتَقْدِمُونَهم ليكونوا عَوناً لَهُم عَلى عُدْوانِهم الشِّرير عَلى أَرضِنا وَأهلِنا، في فِلسطينَ وغيرِها مِنَ الدُّوَل العَربيّة.

لقد جاؤوا مِنْ جَميعِ أَنحاءِ العَالمِ ليَجْعلوا بَلَدَنا مَحْشَراً لَهم وَسوفَ يَموتونَ عَلى أَيدي المُواطِنينَ العَرَب.

أَلَمْ تَسْمَع يَا سيِّدي بِمَا أَقَرَّتْهُ مُؤتمراتُهم؟ لَقَد خَطَّطُوا لاحتلالِ وَطَنِنا مُنذ مِئاتِ السِّنين. إِنَّ لَهم بروتوكولات تُسمّى (بروتوكولات صهيون) وَفيها وَضَعُوا مُخَطَّطاتٍ لِشِراءِ ذِمَمِ حُكّامِ العَالمِ القَويِّ وَلإفسادِ الأَخلاقِ

وَالمبادئِ الخَيِّرَةِ عِندَ الإنسان، وَقد تَعاوَنتْ مَعَهُم القُوىٰ الاستعماريّةِ حَتّىٰ يَسهل علىٰ هَـذِه القُـوىٰ الـسَّيطَرَةَ عَـلىٰ بِلادِنـا وَنَهْـبِ خيراتِنـا وَثَرواتِنـا بالتَّحالُفِ بَينَهُم وَلتَخويفِ شَعبِنا وَإذلالِهِ.

أُعْجِبَ الضّابط (محمود) مِنْ كَلامِ المُساعِدِ (علي) وكَبُرَ في نَظَرِهِ وهو يَسمعُ منه هذه المعلومات الهامَّةِ، والّتي هي ضرورِيَّةٌ لكلِّ جنديٍّ وضابطٍ ولكلِّ مواطنٍ في هذا الوطن، وعلىٰ كلٍ منَّا أن يعملَ علىٰ مُقاوَمَتِها بـشتّىٰ الوسائلِ المُمكِنَةِ والتَضحِيَةِ بالنّفسِ والنّفيسِ.

قال الرّقيب: ولهذا نراهم في كلِ يومٍ يجددونَ اعتداءاتهم علينا وعـلىٰ بقيّةِ البلادِ العَرَبيّةِ المجاورةِ للأرضِ المحتلةِ في فلسطينَ، رُغـمَ أنّهـم قـد اِحتلّوا مُعظَمِ أراضيها ومُدُنَهاَ وعاصِمَتَها القُدسُ الشّريفة.

أجاب الضّابط وقد فَـرِحَ مِـنَ الحَماسَـةِ الّتـي وجـدها عنـد عنـاصر موقِعَهُ: لابُدَ يا رِفَاقي أن تَعلَموا أَنّ هَذا العدوَّ هُو مِن أَخطرِ مَـا مَـرَّ عـلىٰ وَطنِنا الغالي مِنْ غُزاةٍ وَطـامعينَ، فَهـو يُريـدُ الأرضَ العَربيّـةَ خَاليـةً مِـنْ سُكّانِها، فَنَرَاهُ يُـشَرِّدُ أَصـحَابَها وَيطـرُدَهم إلىٰ الـدُّول العربيّـة المجـاوِرَةِ. ويقتُلُ مَن بقي منهم فيها، وَهو لا يحتَرِمُ ولا يَعـرِفُ أو يَعْـتَرِفُ بمواثيـقَ إنسانيّةٍ أو أخلاقيّةٍ، إنّ لَديهم مُنظَّماتٌ إرهابيَّةٌ يقودُهـا مُجرمُـونَ مُحْتَرفـونَ بالقتلِ مثل مُنَظَّمةِ اشتيرن والأرغون والهاغانا، ألم تَسمعوا عـن مَجَـازِرَ في

داخلِ فلسطين.

إنَّ أطماعَهم لا حُدودَ لها. وفي كُلِّ يومٍ يقومُ عُدوانٌ جديدٌ ومطامعُ مُتجدِّدةٌ عَلى أرضِ وخيراتِ الوطنِ العربيِّ الَّذي ابْتُلِيَ بهم. ولم يقطعِ كلامَهم والاسترسال بالأحاديثِ الَّتي يَعتبِرُها كُلُّ واحدٍ مبادئَ يجب إعلانَها والدِّفاعَ عنها، غيرَ صوتٍ مِن جُنْديِّ المرصدِ بأنَّ زورَقينِ صُهيونيَّينِ قادِمانِ إلى الشَّاطئِ المُقابلِ لِمَوقِعِهم.

وهُنا تمَّ إعلانُ الاستنفارِ الكاملِ. وأمرَ المُلازمُ (محمود) تجهيزَ المدافعِ والرَّشاشاتِ، وإرسالَ دَوريَّةٍ راجِلَةٍ لِتَكْمُنَ على الشَّاطئِ خوفاً من نُزولِ عناصرَ مُعاديةٍ عليه.

اقتربَ زَوْرَقٌ منهما وبقي الآخرُ بعيداً كي يُساعِدَه في عُدْوانِه، وما هي إلّا لحظاتٍ حتى فَتَحَ النَّارَ على مَوقِعِهم. فهو حِصنٌ عائمٌ فيه مدافعُ ورشاشاتٌ وفَصيلٌ مِنَ المعتَدينَ الحاقِدينَ على شَعبِنا وجميعِ شُعوبِ الأرضِ.

أعطى القائدُ العربيُّ أمراً بالرَّدِّ على المُعتدينَ وبِسُرعةٍ تجاوبَ الموقعُ مَعَ الأوامرِ. وَالتَهَبَتْ الأرضُ والسَّماءُ وحتى صَفحةِ الماءِ. وكانتِ القنابلُ تسقطُ جانبَ المَركِبِ اللَّعينِ فيتمايَلُ يميناً وشِمالاً وَشَظايا القَنابلِ تدُكُّهُ وتَقْصِفُ أعمارَ مَنْ فيهِ مِنَ المُعتَدينَ. فأسرعَ الزَّورَقُ الثَّاني يحميه

ويُحاوِلُ إسكاتَ نيرانِ الحصنِ المندَفِعَةِ نحوَ الزَّورَقينِ.

فأسرَعَا بالتَّراجُعِ بعيداً باتِّجاهِ مدينةِ طَرَطُوسَ حامِلينَ قتلاهُما وجَرْحاهُما.

لَقَد مَرَّت ساعةٌ رهيبةٌ استَبْسَلَ فيها عَناصِرُ المَوقِعِ وقد انتصروا على الأعداءِ، ولَقَّنوهُم دَرْساً قاسياً، وفي كلِّ يومٍ تَتكَرَّرُ مثلُ هذهِ المعركةِ في هذهِ الأرضِ الغاليةِ.

كانَ المُلازِمُ الأوَّل (محمود) لايُغادِرُ الموقِعَ إلّا نادراً لِتناوُلِ بعضِ الوَجباتِ الغِذائيَّةِ في نادي الضُّبّاطِ، وهو يَنتَظِرُ المعركةَ مع المعتدين، وكما توقَّعَ فإنَّهم سوفَ يَتَقَدَّمونَ فيُهاجِمونَ بَرّاً وبَحْراً قال المُساعِدُ سلي: إنَّ حِصنَنَا أصبَحَ شَوكَةً في حُلُوقِهِم يُذيقُهم المَوتَ الزُّؤامَ، كَما حدث حولَ هذهِ البُحيرَةِ في أعوامٍ سابقةٍ في سنة (١٩٥٥) يومَ أنْ حدثت معركةُ طَرَطُوسَ عندما هاجمت القُوّاتُ الإسرائيليّةُ المَخافِرَ العربيّة السوريّة المُتَمَرْكِزَةَ شرقَ البُحَيرَةِ وفي مرتَفَعاتِ سكوفيا، مُستَغِلَّةً الظلامَ الدامِسَ في شهر كانون الأوَّل بعدَ منتصفِ اللّيلِ، حيثُ كانَ العدوانُ واسعاً وكبيراً بالآليّاتِ ومدعومة بلوائينِ من جنودِ المُشاةِ والكوماندوس، لِتدميرِ المواقعَ الّتي كانت تَقِفُ لهم بالمرصادِ، وهيَ تَتَصدّى لهم مُقاوِمَةً ولإبعادِ زوارِقِهم الحَرْبيَّةِ المعْتَدِيَةِ، وأضافَ الرّقيب حسن: ولكنَّهم لاقوا

ردّاً عنيفاً وخسِروا الكثيرَ من القتلىٰ والجرحىٰ، وَتركُوا وَراءَهُم الكثيرَ مِنَ الآلياتِ المُدَمَّرَةِ والعَتادِ الحربيِّ، كما استَشْهَدَ لَنا عَدَدٌ من الضُّبّاطِ والجنودِ بعد دِفاعٍ مُسْتَميتٍ عَن الوطنِ والشَّرَفِ العَربيِّ منهم الملازم الأوَّل ممدوح قَرَشولي، وهو يحاولُ نَجْدَةَ المخافرِ المُحاصَرةِ شرقِ البُحيرةِ، من موقع سُكُوفْيا بما تبقّىٰ عِندَهُ من العناصِرِ المُقاتِلَةِ.

وكذلك استُشْهِدَ الملازمُ سعيد قزيز في موقعهِ علىٰ التلّةِ المُقابِلَةِ للبُحيرةِ، عندما حاولَ مهاجَمَةَ الغُزاةِ لِتَخْفيفِ الضَّغطِ عن موقِعِ الكُرْسِيِّ.

كما أتذكرُ معركةَ التَّوافيقَ، عندما هاجَمَت القُوّاتُ الصهيونيَّةُ المواقِعَ العربيّة السوريّة في قريةِ التوافيق في ليلةٍ ظلماءَ بالمصفَّحاتِ والآلياتِ الثَّقيلةِ وقوّاتٍ كَبيرَةٍ مِنَ الجنودِ المُدرَّبينَ علىٰ حُروبِ الجِبَالِ وَتَصَدَّىٰ لهم المُقاتِلونَ الأبطالَ من أفرادِ الجيشِ العربيِّ السُّوريِّ. وفيهم مُتَطَوِّعون من الحَرَسِ الوطنيِّ مِن أبناء الجبهة، وكانت بحدود سريَّة مشاة.

أمطَرَتْ المهاجمينَ ناراً وَصَمَدَت لهم كَصُمُودِ الجَبَلِ الَّذي يَحميهِم، لقد سَقَطَ الكثيرُ من قتلىٰ العَدوِّ علىٰ أيدي المدافعينَ، لم تكن القواتُ منكافِئَةً بالعَدَدِ ولا بالعُدَّةِ، سَريَّةٌ تجابِهُ لواءً معزَّزاً بالآلياتِ فَعَدَدُنَا يا سيّدي يُماثِلُ عَدَدُهُم في تِلكَ المعرَكَةِ، وأَظنُّ أن مَعْرَكَتُنا ستكونُ مثلَ

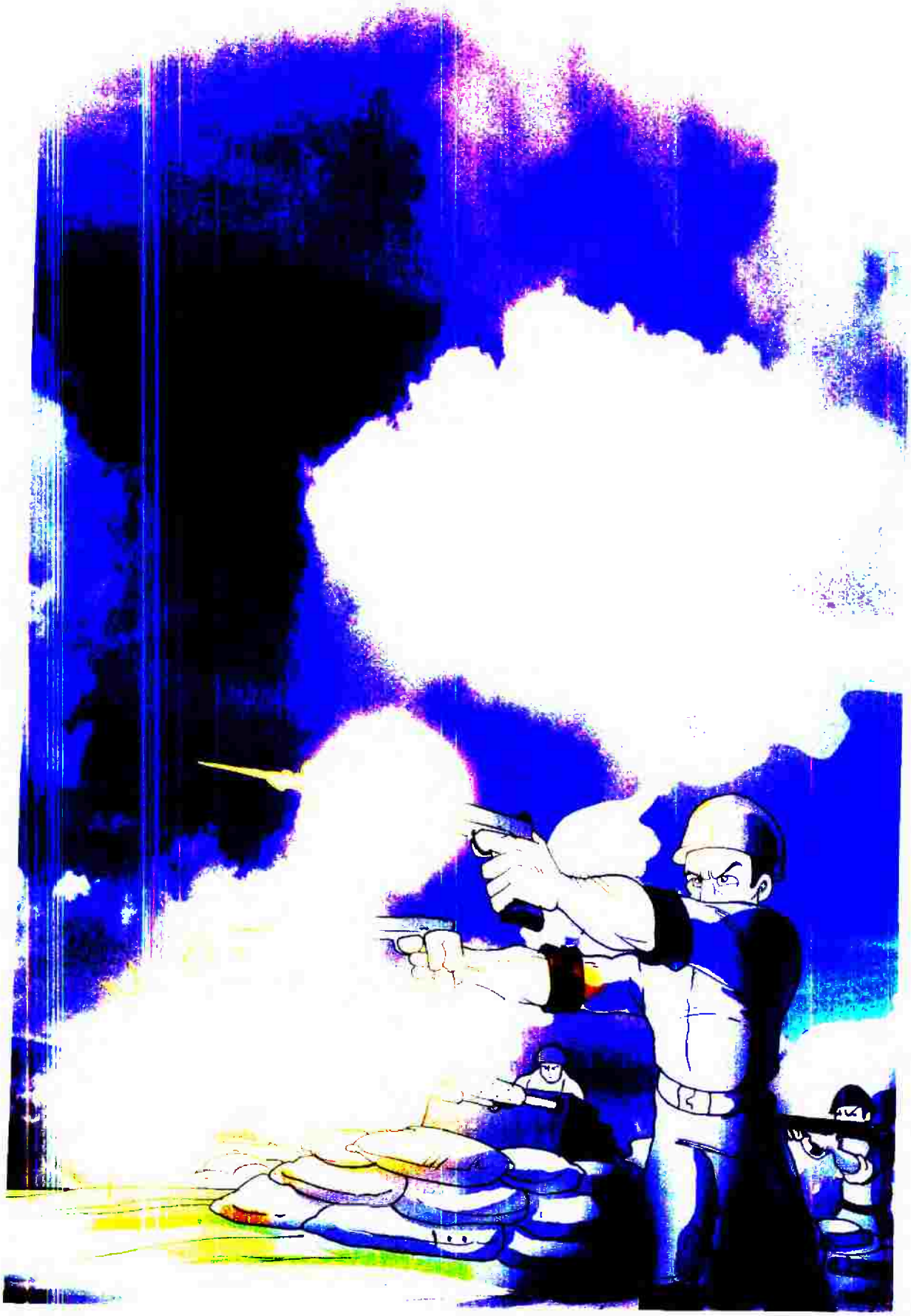

معرَكَتِهِم تلك وانتصارُنا أكيدٌ بعونِ الله تعالىٰ كَانْتِصَارِهم وإذا استَشْهَدْنا فهذا وَعْدٌ للمقاتلينَ المُخْلِصين وأن لهم الجَنَّةَ وتَلا قولَهُ عَزَّ وجلَّ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

صدقَ اللهُ العظيم.

وكَانت المدفعيةُ السُّوريَّة الرَّابضَةُ علىٰ الجِبال المُحيطَة بالتوافيقِ قد أَمْطَرَت المعتدينَ وابلاً من القَنَابِلِ المُتَلاحِقَةِ طِوالَ تلكَ الليلةِ.

فردَ عليه المساعدُ علي، إنهم سيلاقونَ نَفسَ المصيرِ الَّذي لاقُوه هُناكَ مُنذُ أربعةِ أَعْوام تقريباً، فاندحروا وكُسِروا شرَّ كَسْرَةٍ.

وقد استَشْهَدَ أَغلبُ العناصِرِ فداءً ودِفاعاً عن حِياضِ الوَطَنِ، بَعدَ أَنْ قَتَلُوا من المُهاجِمِينَ المُعتدينَ أَعداداً كَبيرة.

وَحَمَتِ السَّريَّةُ الأَرضَ العربيةَ من الاحْتِلالِ الَّذي كانَ يَهْدُفُ إليه الغُزَاةُ، إنهم في كلِّ يومٍ يريدونَ وَضعَ يَدَهُم علىٰ أرضٍ عربيَّةٍ جديدَةٍ، إنها أَهدافَهم العدوانية وتعاليمُهم الصَّهيونيةُ.

قالَ الملازم محمود أَيها الرِّفاق: لقد دفعِ إخوتُنا في معاركِ الشَّرف بالتوافيق وطَبَريَّا والكرسي والخاصلْ وسكوفيا أرواحَهم فِداءً للوطن وإننا مِثْلُهم ولن نَكونَ أقلَّ منهم حماسةً وفداءً وتضحيةً.

وَفَجْأَةً ظَهَرَتْ في الجوِّ طائرةٌ للعدو متجهة نحوهم فأسرعوا جميعاً

نحو الخنادق وَتَمْركزوا فوق أسلحتهم، وخاصَّةً الأسلحةُ المُضادة للطائرات.

حلقت الطائرة فوقهم وهي تَسْتَطِلعُ موقعَهم وكأنها قد جاءت بمهمة استطلاعِ ورَصْدِ أَسْلِحَتَهم فما كان من قائدِ الحصنِ الملازم أول محمود إلّا أن أعطىٰ أمره بإطلاقِ النَّار عليها، أسرع العريفُ قاسم يرفع مدفعه الرشاش (٧.١٢) وضغط علىٰ الزِّناد فانطلَقت الطَّلَقاتُ المتفجِّرةُ تتدافع متلاحقة نحو الطيارة المعتَدِية علىٰ المَجالِ الجَوِّي العربي السوري فأسرع الطَّيارُ الصَّهيوني بالانسحابِ والهَرَبِ باتجاهِ الغربِ فوقَ البحيرةِ عندما أَحَسَّ بالخَطَرِ المُحْدِقِ بِطَائِرَتِهِ، ولكن العريف قاسم لاحقَ الطَّائِرَةَ بِرَشْقِها برشقاتٍ من القنابلِ المتفجرةِ، وكان تصويبه دقيقاً فأصابها إصابةً مباشِرَةً فاشتعلت فيها النَّارُ والدُّخانُ يَتَصاعدُ منها.

حاولَ الطَّيارُ الوصولَ إلىٰ المطارِ الحَرْبِيِّ القَريبِ من مدينةِ ضمير فلم يَقْدِرْ فَهَبَطَ بِمِظَلَّةٍ فَوقَ مِياهِ البُحَيرةِ وَتَركَها تَهوي علىٰ صَفحَةِ الماءِ وهي تَشْتَعِلُ مُحْتَرِقَةً.

كَبَّرَ العريفُ قاسم وهو يَقْفِزُ في الهَواءِ فَرَحاً وَكَبَّرَ معه أَفْرادُ الموقعِ وهم يُقَبِّلونَه ويُهَنِّئونَه علىٰ إلحاقِه الهَزيمةَ بالمُعْتَدينَ وإسقاطِهِ القَاذِفَةَ المُهاجِمَةَ لِموقِعِهم الحَصينِ.

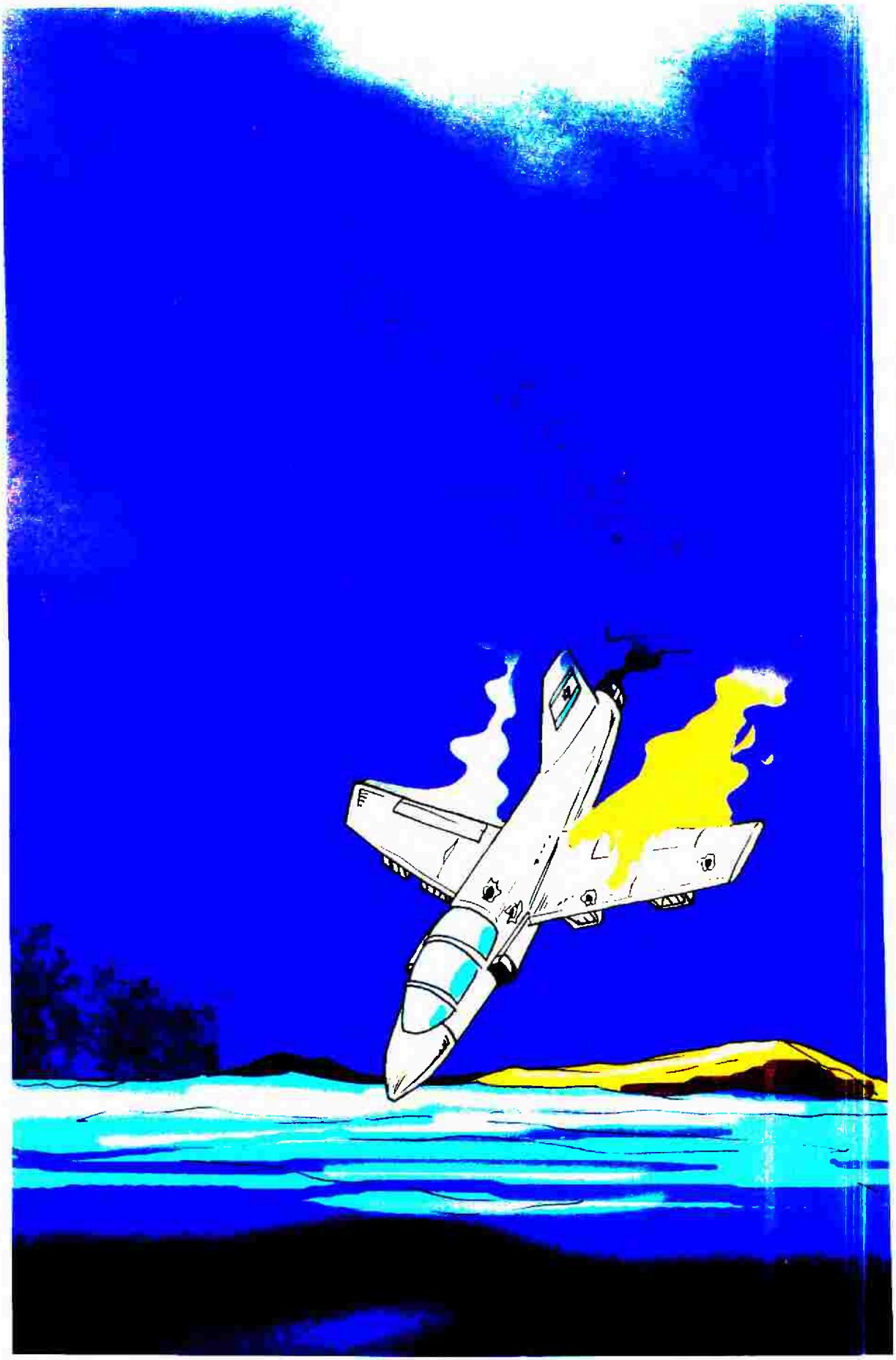

أسرَعَ العَدُوُّ بإرسالِ الزَّوارِقِ للبَحْثِ عن الطَّيَّارِ، وفكَّرَ الرَّقيبُ حسين بالنُّزولِ إلى البُحيرَةِ لأَسرِهِ لولا بُعْدُه الكبيرُ عن الشاطِئِ وما هي إلَّا لَحظاتٍ حتىٰ أَطلَقتِ المَدافِعُ الثَّقيلةُ رَشقاتٍ من القَنابِلِ من مَواقِعِها في الجِبالِ المُنْحَدِرَةِ من مدينَةِ صَفدٍ علىٰ المقاتِلينَ في حصنِ تَلِّ النَّيرَبِ وَموقعَيْ الكُرْسي والدُّوكا رداً علىٰ فَشَلِهم وبِسَبَبِ إسقاطِ الطَّائِرَةِ المعتَدِيةِ.

بادَرَتِ المدفعيةُ السُّوريَّةُ المتَمَرْكِزَةُ في مرتَفَعاتِ سْكُوفْيا بالرَّدِّ عليها وإسكاتِ نيرانِ مدفعيَّةِ العَدوِّ، وكانت لِأَهدافِها مُدَمِّرَةً وتَحْرِقُ كُلَّ شيءٍ حولها فَأَصابَتْها في الصَّميمِ من الرَّشْقَةِ الثانيةِ فَأَسْكَتَتْها وأشعلت فيها النيران وتَفَجَّرَتِ المَدافعُ العَدُوَّةِ بِقَذائِفِها وأَطْقُمِها، فَتَنَفَّسَ المدافعون عن الحصنِ الصُّعَداءَ وأيقنوا أَنَّ مدفعيةَ العَدوِّ قد دُمِّرَت ولم تَعُدْ تُشَكِّلُ خطراً عليهم.

عَمَّتْ حالةٌ من الهدوءِ والرَّاحةِ أَفرادَ المَوقِعِ، وَتوجَّهوا نحوَ أَسِرَّتِهم لأخذِ قسطٍ من الراحةِ، لأَنَّهم لم يَذوقوا طَعمَ النَّومِ مُنذُ ثمانيةً وأربعينَ ساعة.

شاهَدَ المساعدُ علي الجنديَّ حَسن... فناداه إلىٰ خَيْمَتِه، وقد تَذَكَّرَ حُبَّهُ الجَديدَ الَّذي نَسِيَهُ في غَمْرَةِ الاعتِداءِ علىٰ الحِصنِ، وما يَتَوَقَّعونَه من

الهجوم مُرْتَقَبٍ عليهم سَأَلَ المساعدُ الجنديَّ عن حالِهِ وصِحَّتِه وَمَعْنَوِيَّاتِـه فأَجَابَهُ هذا: وعن أيّ أَمرٍ آخرَ تَسأَلُ يا حضرةَ المساعِدُ، فَـضَحِكَ وتَنَهَّـدَ شوقاً وَلَوعَةً وما أَصْدَقَ حُبَّ المقاتلُ الشُّجَاعُ....

وحاله كقولِ المحبِّ الشاعر (عنترةُ بنُ شداد)

يـا دارَ عَبلَـةَ بـالجَواءِ تَكَلَّمـي ... وَعِمـي صَـباحاً دارَ عَبْلَـةَ

حتىٰ يقول:

يُخبِرك مَـن شَـهِدَ الوَقيعَـةَ أَنَّنـي ... أَغشى الوَغى وَأَعِفُّ عِندَ المَغنَمِ

ويتابع الشاعر عنترة:

لَـمّا رَأَيـتُ القَـومَ أَقبَـلَ جَمعُهُـم ... يَتَـذامَرونَ كَـرَرتُ غَـيرَ مُـذَمَّمِ

يَـدعونَ عَنتَـرَ وَالرِمـاحُ كَأَنَّهـا ... أَشـطانُ بِئـرٍ في لَبـانِ الأَدهَـمِ

مـا زِلـتُ أَرمـيهِم بِثَغـرَةِ نَحـرِهِ ... وَلَبانِـهِ حَتّـى تَـسَربَلَ بِالـدَمِ

وقوله:

إِني عَـداني أَن أَزُورَكِ فـاعْلَمي ... مـا قَـدْ عَلِمـتِ وَبَعْـضَ مـا لَم

حَالَتْ رِماحُ بني بَغِيضٍ دونَكُم ... وَزَوَتْ جَـوانِبَ الحَـربُ مَـن لَم

وقد أقبلَ الليلُ وبَدَأت خُيـوُط الظَّـلامِ تُخَـيِّمُ فـوقَ الموقـعِ، وهـدير الزَّوارِقِ يعلو مياه البُحيرَةِ يُعَكِّرُ هُدوءَ الليـلِ، وأَنـوارُ الكَـشَّافَات تَـشُقُّ

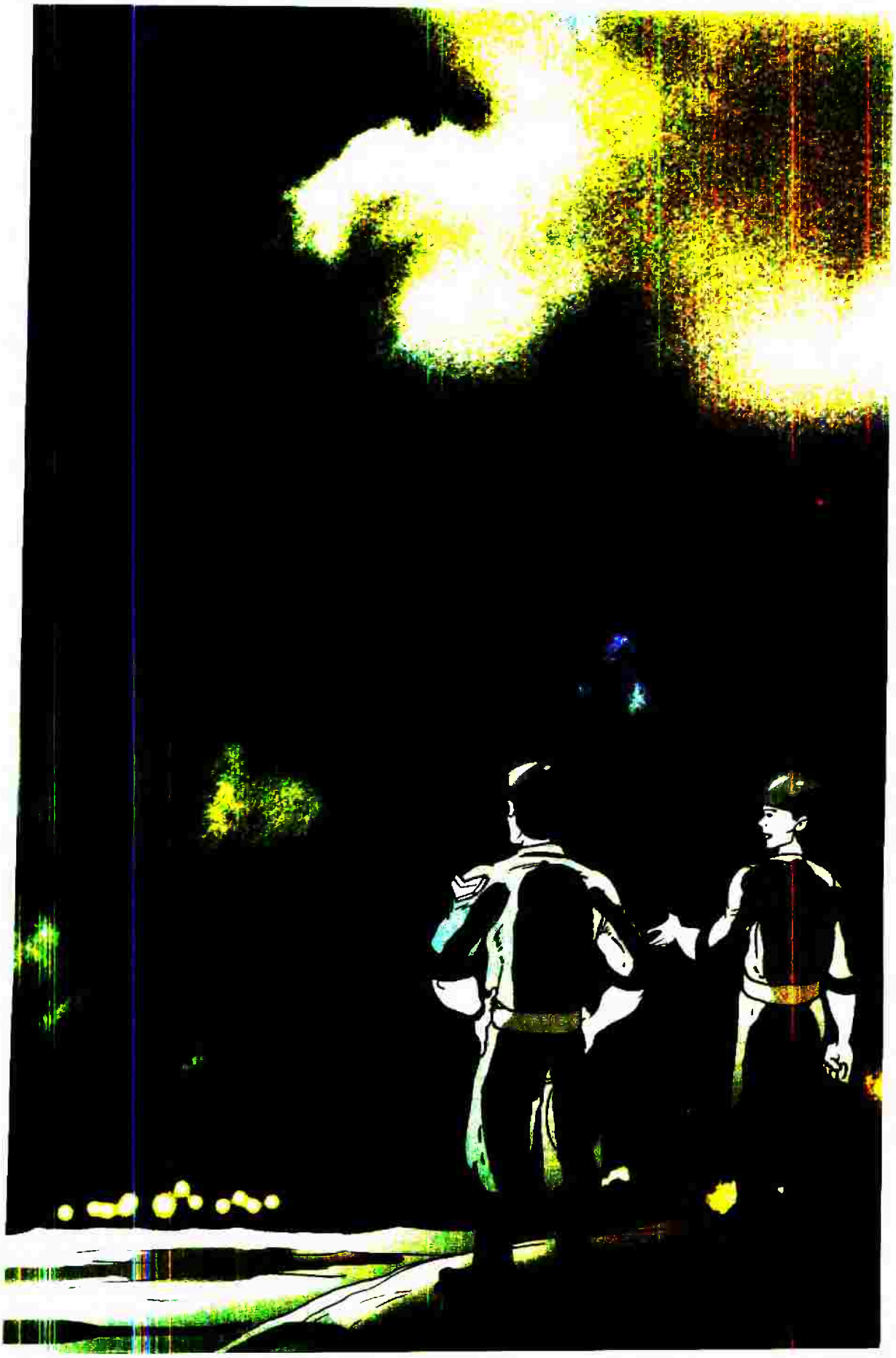

الظُّلْمَةَ وتكشِفُ المواقِعَ الرَّابِضَةَ شرقَ البُحيرةِ.

خَرجَ المساعدُ والجنديُّ في جَولةٍ حَول الموقِعِ، وقد أَعْلَمَتْهم القِيَادَةُ أنهم قد يَتعَرَّضون إلىٰ خَطرِ هُجومٍ من قواتِ العَدُوِّ الّتي تَجَمَّعتْ في مستعمرةِ (عين كيف) ومن إنزالٍ بَحريٍّ عبرَ البُحيرةِ.

مَرّا علىٰ العناصر الرَّابِضَة علىٰ أَسلِحَتِها، تَحَسُّباً للهُجوم المتوقعِ وتَفَقَّدا جاهزِيَّتَهم، خاصةً المفرزةُ الجديدةُ الّتي دُعِّمَتْ بها السَّريةُ. وانتهَزَ المساعدُ الفُرْصَةَ، لِيعرِفَ أخبارَ فَتاتِه الجَميلةِ، فبادَرَه الجنديُّ إنها تسألُ عنك وهي قَلِقَةٌ عليكَ وأَبْلَغَتْني لك السَّلام.....

وَتَمَنَّت لَكُم السلامةَ من كلِّ مَكروهٍ، وتدعو إلىٰ الله: بالنَّصرِ علىٰ الأعداءِ، في موقِعِكم وغيره من المواقع العربية.

قال: يا حسن هذا العدوُّ لن يَتْرُكَنا نهنأُ في حياتِنا وقَدَرُنا أن نكون في هذا الموقعِ الَّذي يُدافِعُ عن حدودِنا وَوَطَنِنَا، أَبْلِغْها يا حسن أنني مشتاقٌ لها وفي أَقربِ وقتٍ سوف أُحْضِرَ أهلي لأُخْطُبَها من أهلِها إذا وافقوا علىٰ ذلك وعِشْنا إلىٰ تلكَ السَّاعةِ.

قال الجنديُّ دع هذا عليَّ، فأنا أَتَكَفَّلُ بذلك وَمَرَّتْ الليلةُ دونَ إطلاقِ نارٍ أو مناوشاتٍ إلّا من نباحِ الكلابِ، وعواءِ الذِّئابِ في الشِّعابِ المحيطَةِ بالحصنِ.

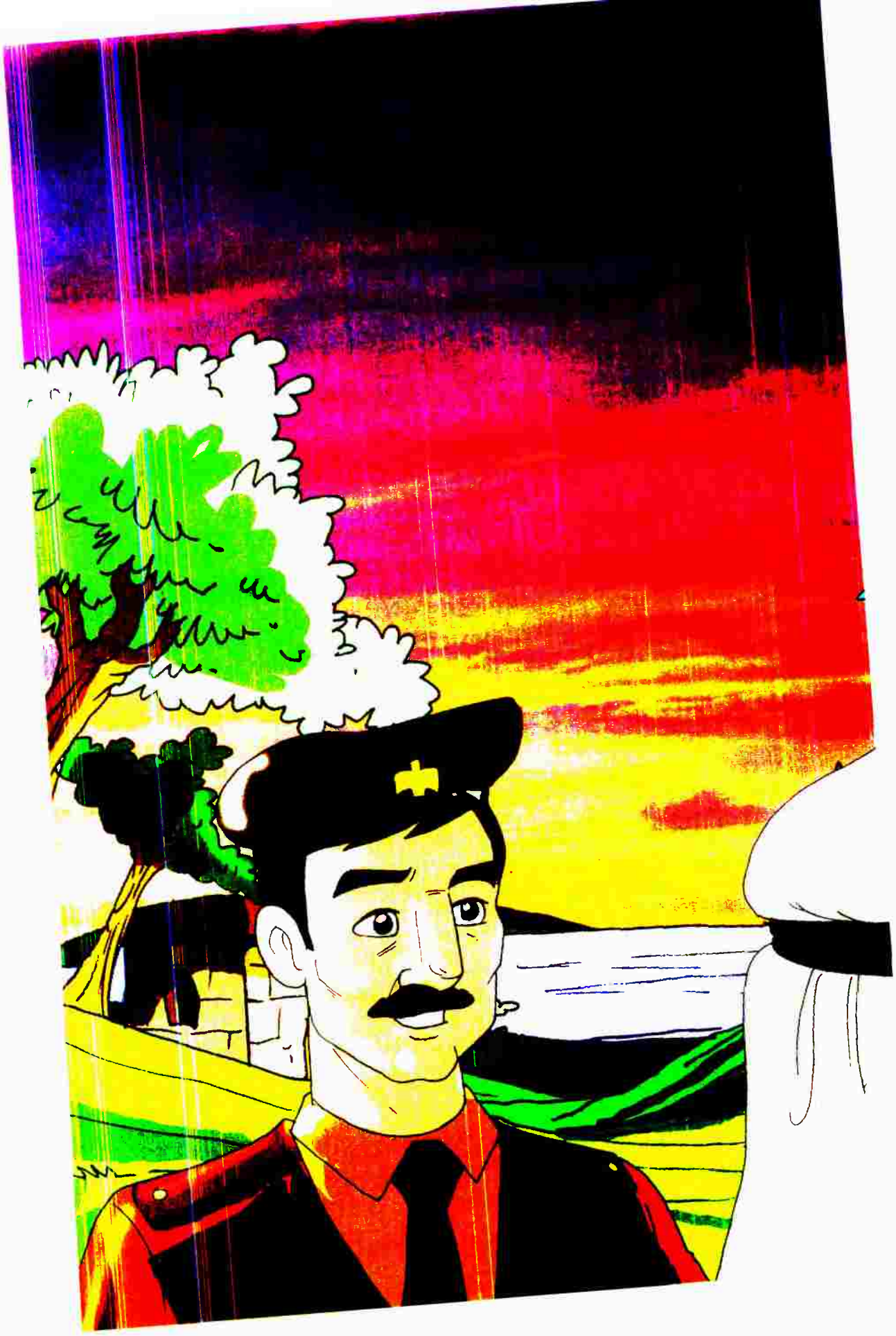

وكان الملازِمُ أوَّل (محمود) قد أعطىٰ أمراً للرقيب حسين والعريف قاسم وجندي ثالثٍ مَعَهُما كي يذهبوا في مهمةٍ استطلاعيةٍ إلىٰ مواقعِ العَدُوِّ ليعرفوا ما يدورُ في الطَّرَفِ الثاني من الجبَهةِ وعندَ الفَجْرَ عادت الدَّوْرِيَّةُ وقد دَخَلتْ بين قواتِ العَدُوِّ، وتَعَرَّفَتْ علىٰ حجمِ الحُشُودِ وَنَوعِ الآلياتِ وَقَدَّمَتْ تقريرَها لقائدِ الموقعِ الَّذي بِدَوره بَعَثَه إلىٰ القيادَةِ، كما أَحْضَرتْ معها قطوفاً من الموزِ المزروع في أرض المستعمرةِ كدليلٍ علىٰ دُخولِهم إليها وتنفيذِهم المُهِمَّةِ.

وفي اليوم التالي أرسلت القيادَةُ تعزيزاتٍ إلىٰ الحِصْنِ من عَناصِرَ مقاتلةٍ وأسلحةٍ وذخائِرَ للدفاعِ عنه في حال الهجوم المُتَوَقَّعِ عليهم.

كما أرسلت سَرِيَّةً مُدَعَّمَةً، تمركَزَتْ علىٰ تَلَّةٍ مُشرِفةٍ علىٰ الحِصنِ لتكونَ مُؤازِرةً لموقعِ تلِ النَّيْرِبِ تعزيزاً للدِّفاعِ عنه إذا حاولَ العَدُوُّ تنفيذَ الهُجومِ.

وفي غَمْرَةِ الهدوءِ، وبمنتصفِ النَّهارِ أَخبَرَ المقاتلُ (علي) الضَّابطَ (محمود) برَغْبَتِهِ في الذِّهابِ إلىٰ القريةِ لِبَعضِ الوقتِ، فَلَبِسَ أَجَدَّ الثِّيابِ العَسكَرِيَّةَ وأَخرجَ من خِزانَتِه الحديديةِ زُجاجةَ عطرٍ كانت قَد أَهَدتْها له ابنةُ خَالِته، التي تَطْمَحُ أن تكونَ زوجَتَهُ، فَتَذَكَّرها وقالَ في نفسِهِ: كيف استَوْلَتْ علىٰ لُبِّي هذه البدوية (يسرىٰ) إنَّها لم تَدَعْ لي مجالاً أن أُفَكِّرَ

بغيرِها.

وما أَسْرَعَ أن صَعَد الدَّربَ الضَّيقَةَ الملتوِيَةَ في الشِّعابِ المُشرِفَةِ فوقَ البُحيرةِ، وَلَـمَّا وَصَلَ عينَ الماءِ رأىٰ الفتياتِ يَمْلأنَ الأَواني، وَتَفَحَّصَ الجَمْعَ لَعَلَّهُ يرىٰ فَتَاتَه فلم يَجِدْها، وتابع السَّيرَ حتىٰ وصلَ المطعمَ المتواضِعَ في القريةِ، رَحَّبَ الجميعُ به وفَرِحوا بِقدومِه وأحضَروا له أَطيبَ ما عندهم من طعامٍ وشرابٍ، ولكن رغبته لم تكن بطعامٍ وشرابٍ، إن عقلهُ هناك عند النَّبْعِ والاستِحْواذِ علىٰ نظراتِ جَمِيلَتِه في التَّجمعِ المجاورِ.

وَصَلَ الفلاحُ أبو هاني من حَقْلِهِ ورأىٰ المساعدَ علي فَحَيَّاهُ بِحَرارَةٍ وَشَدَّ علىٰ يَدِهِ بقوَّةٍ وهَنَأه بإسقاطِ الطَّائِرَةِ المعاديةِ التي أَغَارَتْ علىٰ موقعهم، وعلىٰ إصابةِ الزَّورقِ المعادي وإعطابِه وَقَتْلِ جُنُودِ العدوِّ فيه، قال له المقاتلُ الشُّجاعُ: أَلَمْ أَقُلْ لك يا أبا هاني، بأنك سوف ترىٰ وتسمعُ أخبارنا، وما نصنعُ بهذا العدوِّ اللعينِ الغادرِ.

تركَ المساعدُ علي القريةَ بعد أن أَكْرَمَ من في المطعمِ، وَتَوَجَّهَ في دَرْبٍ تُرَابِيَّةٍ نحو الغربِ باتجاه البُحيرة، إلىٰ حيث الحِصنِ الرَّابِض قُبَالَتها كالطودِ الشَّامِخِ وقد أصبحَ شوكةً في حَلْقِ العدوِّ.

كان يَتَمَنَّىٰ رؤيةَ الفتاةِ التي أَخَذَت لُبَّهُ من أَوَّلِ نَظْرَةٍ، وَشَغَلَتْ فِكْرَه وَجَوارِحَهُ ولاحَ له في آخرِ الطريقِ، من يسيرُ في هدوءٍ متجهاً غرباً باتجاه

عين الماء.

أَسرَع الخُطَا لِيَلْحَقَ به لعله يكون من يريد، وما هي إلّا دقائقَ حتى وصل إليها، ونَظَرَ مُتَفَحِّصاً فإذا هي ضالَّتَه المنشودَةُ، وقد انشَرَحَت أَساريرُه وَتَوَرَدتْ وَجْنَاتُه خَجَلاً وحَيَاءً، نَظَرتْ إليه الفتاةُ وهي الّتي تَتَهَيَّبُ من مِثلِ هذا اللقاءِ، رغمَ أنه قد وَجَدَ مَكاناً في قَلْبِها، لِهَيْبَتِه وَشَجَاعَتِه وَأَدبِه، حَيَّاها تحيةً مُلؤُها المَحَبَّةُ والاحترامُ، رَدَّتْ عليه وَقَلْبُها يَخْفُقُ خجلاً وَمَحبَّةً.

طلبَ مُرافَقَتَها حتى نهايةِ الطَّريقِ إلى حيثُ عينِ الماءِ فسَكَتَت والسُّكوتُ عَلامةٌ من علاماتِ الرِّضا، وقد سَمِعْت عن حُسْنِ خُلُقِه وَلَبَاقَتِه .

سارا سَوِيَّةً وكان هذا اللِّقاءُ الأوَّلُ بعدَ النَّظرةِ الأوَّلى.

قال لها: كم تَتَعَذَّبون في جَلبِ المِياهِ إلى مَنَازِلِكم؟

قالت: إنَّها للشرب والطَّبخِ، ولدينا آبارٌ رومانية نَجْمَع فيها مِياهَ الأمطارِ للاستعمالات الأخرى.

قال: ولكن الحكومةَ تعملُ على جَرِّ مياهِ نبعِ الجوخدار الغزيرةِ والنَّقيةِ إلى قرى الجبهة، وقد أصبَحت الأنابيبُ جاهِزَةً وستصلُكم قريباً.

فقالت الفتاةُ: إنها بشرى سارة.

قالت: ما أسمك أيها المساعد.

قال: علي.

قالت: سمعت عن شجاعتك في القِتَالِ مع العدوِّ.

قال: وأين نحن من ثَبَاتِ وَصَبْرِ أَهل الجَبْهَةِ، إِنَّكُم قد تَحَمَّلتُم عَنْجَهِيَّةَ واعتداءاتِ الصَّهاينَةِ منذ احتلال فلسطين عام (١٩٤٨) وما زِلتُم صَامدين.

قالت: ولكن موقعكم يتعرض كل يوم للقصفِ، وأنتَ ورِفاقُكُ تُذيقون المعتدينَ الويلَ والموتَ الزُّؤام.

سُرَّ المساعدُ بما سَمِعَ من إطراءِ وثَناءِ فَتَاته، فَكَبُرَتْ في نَظَره وزادَ تَعَلُّقُه بها وَمَحَبَّتُهُ لها وَشَمَخَتْ هَامَتُه علواً وكِبْرِياءً من الثَّناءِ الَّذي سَمِعَه منها، وهذا ما شَجَّعَه علىٰ الاستمرارِ في حديثِهِ، كي يدخل في موضوعٍ هامٍ ومصيريٍّ في حياته. وفجأةً سَمِعَ أصواتاً مُدَوِّيةً وانفجاراتٍ مَصْدَرُها من شاطئ البُحيرة، باتجاه موقع المساعدِ علي فما أَسْرَع ما دَبَّتْ الحَمَاسَةُ في أَوْصَالِه، قال للفتاةِ يُسرىٰ: إن الموقعَ يَحْتاجُني ويَجبُ أن أَصلَ بِسُرْعَةٍ إليه لأشاركَ في ردّ الاعتداء عنه.

وسَأَعمل في أقربِ وقتٍ لإرسالِ أهلي إلىٰ أهلك كي أَخْطُبَ يَدَكِ من والِدِكِ، إذا كنتِ موافقةً علىٰ ذلك، فقالت إن الوطن اليوم أحوجَ

إليكَ مني فـأَسْرِعْ حتـىٰ لا تَفوتَـكَ المساهمةُ في ردِّ العـدوانِ عـن البلاد والعبادِ التي هي أَغلىٰ من كلِّ شيءٍ، وَدَعَتْ له ولِرفاقِـه وطَلَبَـتْ مـن الله العليِّ القديرِ أن ينصرهم ويثبت أقدامهم في الدفاعِ عن حياضِ الوطنِ.

وصل المقاتلُ إلىٰ موقِعِه بسرعةٍ، وتوجَّـه إلىٰ غُرفَـةِ القيـادةِ المُحَـصَّنَةِ تحتَ الأرض.

رآهُ الضّابطُ وفَرِحَ بقدومِه بهذه السرعة وقد عرفه مقَّدَاماً مُلَبِيـاً نـداءَ الواجب، فَوَجَد الأمورَ قد هَدَأت، وانسحب المعتدون تحت ضَرَبات مَخْفَرِهم والمخافِرِ المجاورة.

استقبل القائد إشارةً من القيادةِ تُنَبِّهُ إلىٰ احتمالِ وقـوعِ هجـومٍ كبـيرٍ معادٍ علىٰ موقعهم، تَشاوَرَ الاثنانُ في أمرِ الخَطَرِ المرتَقَـبِ علـيهم، واتفقـا علىٰ استطلاعِ الأمرِ، وطلبَ القائدُ من المساعدِ أن يَرْأَسَ دورية لِيلية لهذه المهمة.

وفي الهَزيـعِ الأخـيرِ مـن الليـل، خرجـت عنـاصرُ مـن دوريَّـاتِ الاستطلاعِ وعلىٰ رأسـهم المسـاعد المقـدام، دخلـوا إلىٰ أرض مـستعمرة (عين كيف) حيث الحشودُ الكثيرةُ، ورأوا الأعـدادَ الكبـيرةَ مـن الجنـود والآليات المعادِيَةِ.

تَسَلَّلَ المقاتلون الشجعانُ بـين الحـشودِ، دونَ أن يـشعرَ العـدُوُّ بهـم،

وَجَدَ المساعدُ علي أُحد الضُّبَّاط الصَّهاينةِ يَغُطُّ في سُكْرٍ شديدٍ، عَصَبَ فَمَه وَعَينَيْهِ وَوَضَعَ السكينَ في نَحرِهِ وَسَاقَهُ بهدوءٍ عبرَ المسالِكِ الخَفيَّةِ التي خَبِرَها جيداً، وَصَلَ به إلىٰ الموقعِ ورفاقُه يحرسونَه ولـمَّا أوقَفَه الحَرَسُ الصَّديقُ أعطاهُ كلمةَ السِّر فعرفوهُ، وَتَقَدَّمَ بكلِّ فَخْرٍ نَحو رئيسِهِ الملازم أول محمود، الَّذي فَرِحَ فَرحاً عارِماً بهذا الأَسيرِ المُهِمِّ وقرر أن يُرسَله بسرعةٍ إلىٰ القيادة، حتىٰ يُحَقِّقُوا معه لِيَعْرِفوا منه معلوماتٍ هامة عن أهميةِ وحجمِ الحشودِ المُعَادِية علىٰ الطَّرف الآخر.

عرفَ الملازمُ منَ الأسيرِ أن قواتِ العدوِّ سوف تُهاجِمُهم هذه الليلةِ عنَد طلوعِ الفَجْرِ، فما كان منه إلَّا أن أعطىٰ إشارةَ الاستعدادِ القصوىٰ لعناصرِهِ، وتوجَّه المساعدُ لحثِّ أفرادِ الموقعِ استعداداً لملاقاةِ الأعداءِ وتَدميرِهِم.

تَلقَّىٰ قائدُ الموقعِ إشارةً بإرسالِ الأسيرِ إلىٰ القيادة، فاختار الجنديُّ حَسن لهذه المهمةِ الصَّعْبَةِ والخَطيرَةِ، وأمر سائِقُه أن يَنْقُلَه في سيارةِ الجيب وبكلِّ سِريَّةٍ إلىٰ مركزِ القيادة في مرتفعات جبالِ الجولان.

ساروا بالسيارة في طريق الشاطئ دون أن يُشْعلوا النُّور الكاشف بها، حتىٰ لا يَنْكَشِفوا من قبلِ الأعداءِ خاصَّة الزَّوارقُ المرابطةُ قبالةَ الشاطئِ، وكان الجنديُّ حسن يَرْقُبُ ما حول الطَّريقِ وَيَدُه في موضع الزِّنَادِ من

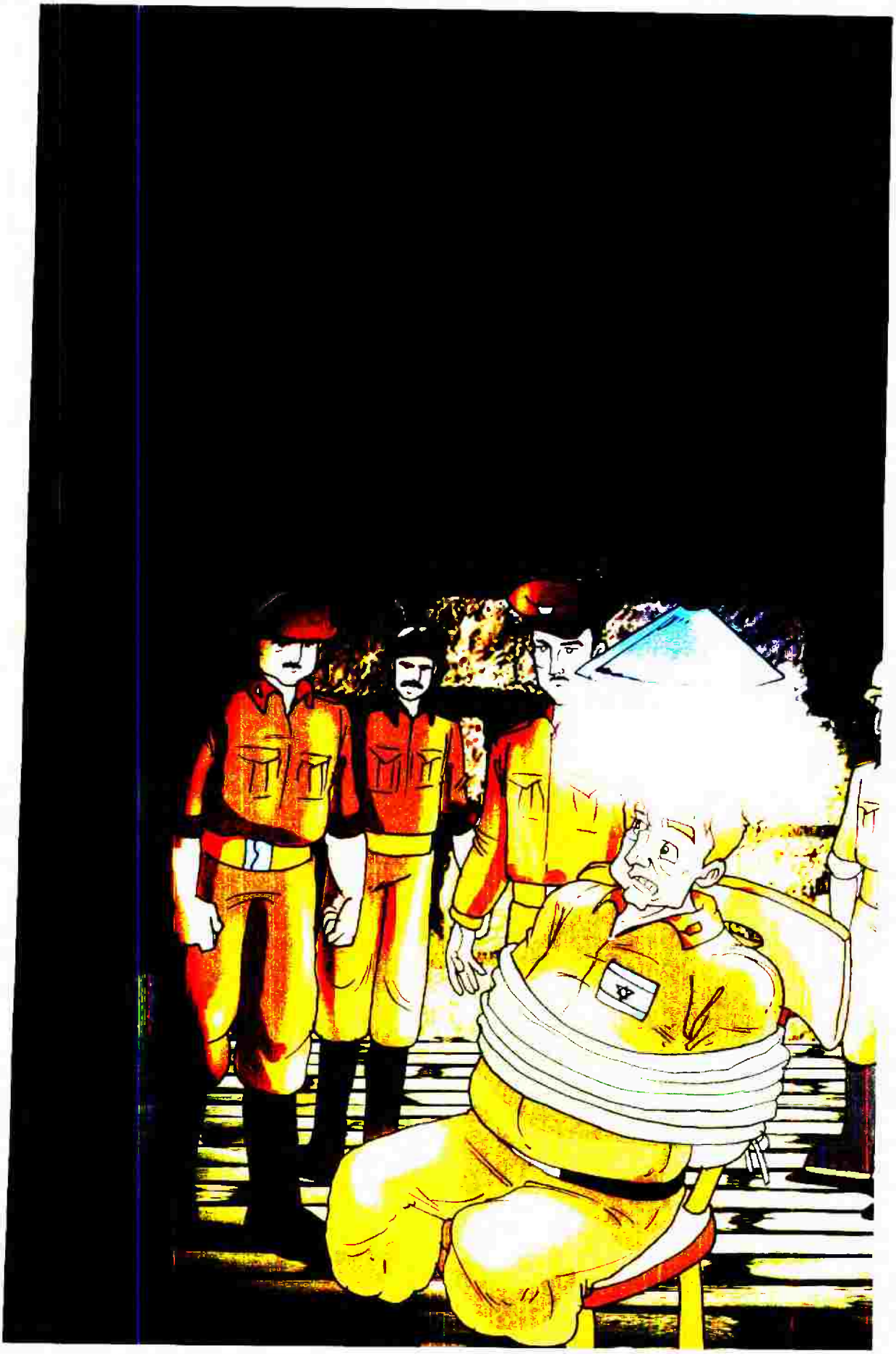

البندقية حرصاً على تنفيذ المهمةِ الهامَّةِ جداً.

وفي الطَّرَفِ الآخر كان العدوُّ يَسْتَكْمِلُ اسْتِعْدَادَاتِه للهجوم، ولما اكتَشَفَ اختفاءَ الضّابِطِ الإسرائيلي عَجَّلوا بالهجوم وَسَّيروا آلياتِهم وَمُشاتِهم وَزَوارِقِهم لتنفيذِ ما رَسَموه من خُطَطِ عُدوانيةٍ على الموقع العربي السُّوري في تلِّ النَّيرَبِ والمواقعِ القريبةِ منه في الكرسي والدوكا.

سَارَ الهجومُ في ثلاث اتجاهات، الأوَّل والثاني من البرِّ باتجاهِ الموقعِ المُسْتَهْدفِ من أَمامه ومن خَلفِه بِهدفِ تَطويقِه، وأما الهجومُ الثالث فَمنَ البحرِ إذ تقومُ الزَّوارقُ بإنزالِ عناصِرِ الكوماندوس الصهاينة، وكانت القواتُ كبيرةً قُدِّرَتْ بِلوائين مُؤَللَّين ومُشاةٍ.

ولما تَأَكَّدَتْ القيادةُ من الهجومِ عَمِلتْ إلى إعطاءِ الأوامرِ بإطلاقِ قذائفِ المدافعِ عليها وإفشالِ تَقَدُّمِها، وكانت المدافعُ العربيةُ السُّوريَّة الرَّابِضَةُ في مُرْتَفَعاتِ الجولان تَدُكُّ هذه القواتِ وَتُدَمِّرُها وتشعلُ النيرانَ فيها، وبدأت الآليات المتقدمة تَجْتَازُ خطَّ الجبهةِ وكانت القذائفُ المُتَساقِطَةُ عليها تُعيقُ تَقَدُّمَها وَتَنْسُفُ وَتَقْتُلُ مَنْ فيها، أما عناصرُ الموقع المهاجِم فَتَأَهَّبوا لِمُلاقاةِ الأعداءِ وَمُدرَّعاتِهم وزَوَارِقِهم وها هو مَوقع الكُرسِيِّ بما فيه من مَدَافِع ورَشَّاشَاتٍ وَبَنادِقَ قد فَتَحَتْ كُلُّها لهيباً وحُمَماً ناريةً على الزَّوَارِقِ التي كانت تُحاوِلُ إنزالَ القواتِ عن طريقِ البحرِ مما

أَعاقَ إتمامَ العمليةِ البَحريةِ وأوقعَ الخَسائِرَ الكبيرةَ بين صفوفِ المعتدين.

وفي موقعِ تَلِّ النَّيرب الَّذي يَحميهِ أُسودٌ أبطالٌ وقد وَضَعَ كُلٌّ منهم صناديقَ الذَّخيرةِ حولَ متراسِه وَتَمَنْطَقَ بِصُفوفٍ من القنابلِ يُفَجِّرُهم بالمعتدينَ الصَّهاينةِ، وبدأَ العَدُوُّ يَظْهَرُ عليهم ومُدَرَّعاتُه تَهْدُرُ وَتُطْلِقُ نيرانَها علىٰ موقِعِهم، وجُنُودُه تزحفُ باتجاهِهم والقَنابِلُ الكاشِفَةُ تضيءُ السَّماءَ فوقَ أرضِ المعركةِ.

أعطىٰ القائِدُ أَوامِرَه بعدمِ الرَّدِّ عليهم حتىٰ يَقْتَرِبوا أكثرَ فأكثرَ. ويصيروا تحت مرمىٰ نيرانهم لتُصيبُهم في الصَّميمِ.

وضعَ المساعدُ علي رَشَّاشاً ثقيلاً (١٢.٧) وَمُذَخِّرَيْنِ من جُنُودِه الشُّجعان، وَصَفوا صَناديقَ القنابلِ من حوله في حُفْرَةٍ دائِريَّةٍ في الزَّاويَةِ المُطلةِ علىٰ الطَّريقِ الَّذي تسلكه المدرعات المهاجِمَةُ، وكانَ يَنْتَظِرُ أَوامِرَ قائِده حتىٰ يعمل بهم قَصْفاً وتدميراً.

كانت المَدْفَعِيَّةُ العربيةُ السُّوريَّةُ تَصُبُّ عليهم حُمَمَها فَتُتَفَجِّرُ بهم لَهيباً وتَحْمِلُ لهم الموت الزُّؤام.

وما هي إلَّا لحظاتٍ حتىٰ أطلقَ القائدُ طَلقةً من مُسدَّسِه مُؤْذِناً بِفَتحِ النَّيرانِ عليهم. وكان الجَحيمُ حول أرضِ الحِصنِ وعلىٰ شاطئِ البُحيرةِ وهي تَلْتَهِبُ بالغُزاةِ المجرمين.

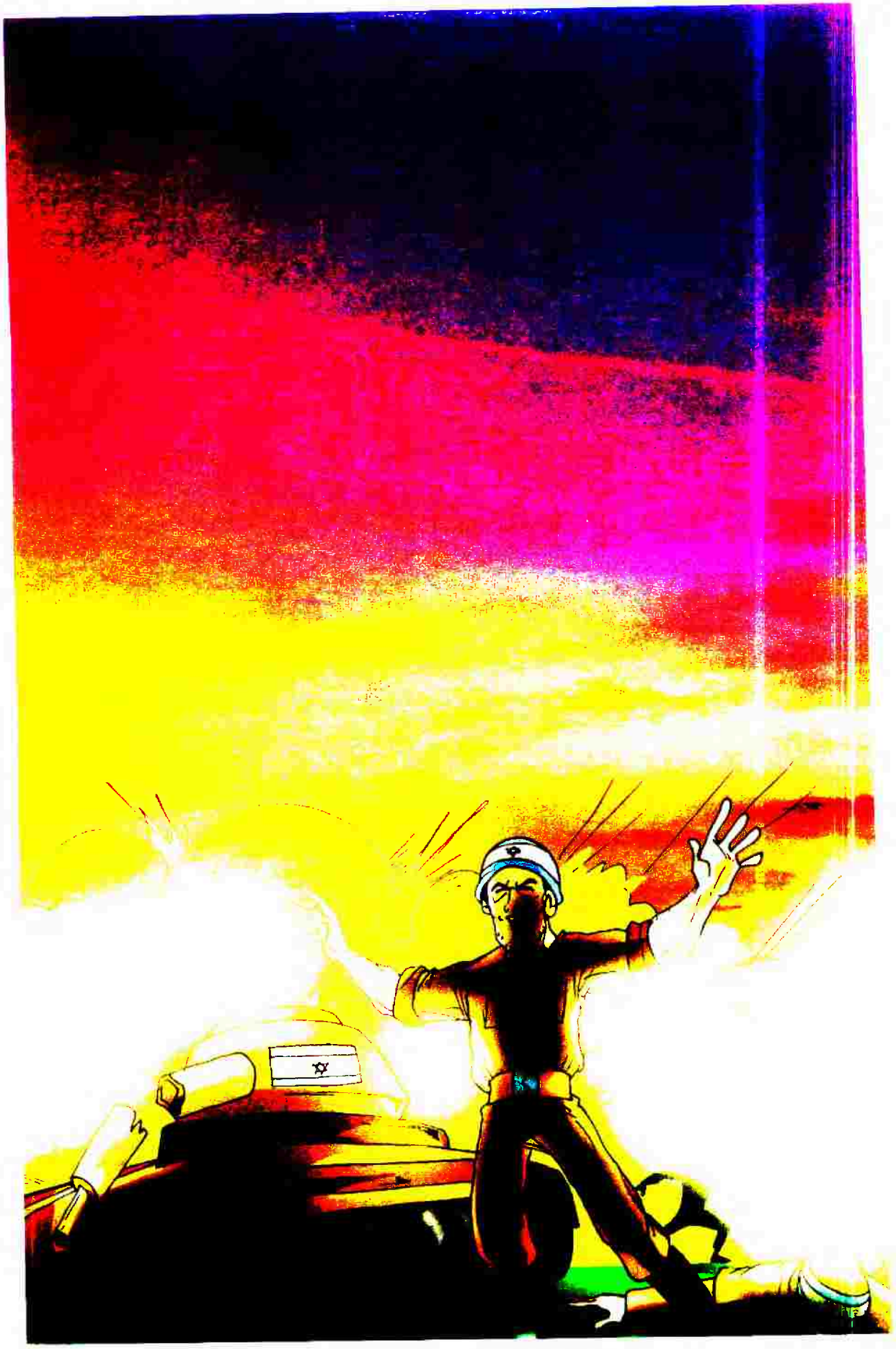

دمّر حُماةُ الموقع الدُّفعةَ الأولىٰ من المهاجمين وارْتَدَّ من بقيَ على قيدِ الحياةِ منهم إلىٰ الوراءِ والمساعدُ علي لا يتركُ الرَّشاشَ لحظةً يسدّدُ هدفُهم ويُلاحِقُهم حيث تواجَدوا في أَرْضِ المَعْرَكَةِ.

تَجَمَّعَ أهلُ القرىٰ القريبةِ من المَعْرَكَةِ وَحَمَلوا بَنادِقَهم الّتي زَوَّدَتْهم بها قيادةُ المقاومةِ الشَّعبيةِ في الجبهةِ، ساروا بقيادة الضَّابط الموكَّلِ بأَمرِهم، وقد قَسَمَهُم إلىٰ مَجْموعاتٍ وأَعْطَاهُم التوجيهاتِ لمهاجمةِ مُؤَخَّرَةِ العَدُوِّ، ولم يَتَأَخَّرْ منهم أحد في تنفيذِ الخُطَّةِ حيثُ بَدأوا بإرباكِ العَدُوِّ المُهاجِمِ وَقَتْلِ أَعدادٍ كبيرةٍ منه.

كانت يسرىٰ قَلِقَةً في تلك الليلةِ فلم تَنَمْ لأنها تعرفُ لُؤْمَ العَدُوِّ وَحِقْدَه، وقد رَأَتْ ضخامةَ الهُجُومِ الصَّهيوني، وهي تَعْلَم شَجاعَةَ عناصرِ المَوقعِ خاصَّةً منهم المساعدُ علي الَّذي تَعَرَّفَتْ عليه وهو الَّذي يطْلُبُ وُدَّها وَخِطْبَتَها.

خَرَجَتْ إلىٰ مُرْتَفَعٍ يُشرِفُ علىٰ أرضِ المعركةِ وَوَجَدَت هناك مجموعةً من الفَتَياتِ ومِنْهُنَّ من يَعرفُ حُبَّ المُقاتِلِ علي ليسرىٰ إنه يَتَعَرَّضُ الآن لامتحانٍ كبيرٍ فيه مصيرُه ومصيرُ الكثيرِ من رِفاقِه، وكذلك فقد يُؤَثِّرُ هذا علىٰ مستقبلِ الأرضِ والقَضِيَّةِ، وكانت الفَتَياتُ يَشعرْنَ بِقَلَقِها علىٰ حياةِ من يُحِبُّها وليس فقط لهذا السبب بل لِشَهامتِه وأَخلاقِه وَشَجاعَتِه

وَتَصدِّيه لهجوم العَدُوّ.

قالت إحداهن: لا تقلقي عليه فهو مِقْدامٌ وقويٌّ ومُتَمَرِّسٌ في القتالِ. فردت إني أدعو ربّي القدير أن ينصرنا علىٰ أعدائنا جميعاً، إنهم يطمعون في أخذ الأرض العربيّة كلها فإذا أخذوا ذلك الموقع فسينتقلون إلىٰ غيره. وقد يصلون إلىٰ دِيارِنا هذه الّتي نَسكُنُها كما فعلوا في فلسطين وأهلها.

قالت الأخرىٰ: هذه معركةُ الجميعِ وهاهم يَرُدّونَ الأعداءَ علىٰ أعقابِهم ويُكَبِّدونَهم أفدحَ الخسائرِ. وقد ذَهَبَ شَبابُنا لِنَجْدَتِهم وكلُّ المخافرِ تُقاتِلُ معهم، وها هي مَدْفَعيَّةُ الجيشِ العربي السّوري تَدُكُّ قواتِهم وَمَواقِعِهم، وكانت القنابلُ تَمُرُّ من فوق رُؤوسِهنَّ مُتَّجِهة إلىٰ الغربِ لِتَنْزِلَ كالصواعِقِ في أرْتالِ العَدُوِّ وعلىٰ آلياتِهِ وتشعلُ فيها النّيرانَ وتقتلُ من يعتدي على أرضِ الوطنِ الغالي.

وبعد أن تجمعت القواتُ المعادِيةُ مرَّةً ثانيةً حيث دَحَرَها المدافعون في الهجمةِ الأولىٰ، ومن مستعمرةِ (عين كيف) انطلقَ الهجومُ الثاني، وقد سَبَقَه قصفٌ كثيفٌ علىٰ المواقعِ المستهدفةِ شرقَ البُحيرةِ، ولم تتأخر مدافعُ الإسناد في المرتفعاتِ السّوريّة بالرَّدِ عليها وإصابَتِها في الصميم.

استعدَّ المدافعون لِملاقَاةِ الهَجْمَةِ الثانيةِ، وَحَسِبوا لكلِّ شيءٍ حسابَه. وقال المساعدُ علي: إن الله قد وهَبَ لكلٍّ منكم مسكناً في الجنَّةِ فلا

تتأخروا عن نَيلِ الشهادةِ، وإن لِباسَكُم الَّذي تلبسونَ هو كَفَنكُم، فاقتلوا العَدُوّ الدَّخيلَ قبل أن يَقْتُلَكُم.

والتَحَمَ الطرفان في قتالٍ شديدٍ، فالتَهَبَتْ الأرضُ والسَّماءُ وَتَفَجَّرَتِ الصُّخورُ والترابُ حتىٰ الماء فَتَحَوَّلَ إلىٰ ساحةِ قتالٍ في الزَّوارِقِ وما حولها. وكما بدا من الهجومِ وضَخَامَتِه، فإن النِّيران قد غَطت سَاحَةَ المعركة وتحول الحِصنُ إلىٰ كتلةٍ من اللَّهب، ولم يَتَوانَ المقاتلون عن الرَّدِ بِحَزْمٍ وجرأةٍ علىٰ الهجومِ، بل بادروا بالانْقضاضِ علىٰ المعتدين ورَمْيِ القنابلِ علىٰ المدرعاتِ المهاجمةِ وكان المساعدُ علي يُصْلِي الصَّهاينةَ من رَشَّاشِه الثقيلِ وَيُحَطِّمُ دَبَاباتِهم بقنابِلِه المُتَفَجِّرَةِ.

واقْتَرَبَ العَدُوُّ من المقاتلين والتَحَموا معهم بالسِّلاحِ الأبيضِ وَفَتَحَ المساعدُ صناديقَ القَنابِلِ، وكان يَرميهم بها كالمَطَرِ، فَتَنْفَجِرَ بهم تُمَزِّقُهم شَرَّ تمزيقٍ.

ومع شروقِ فجرٍ جديدٍ من أيامِ العَرَبِ الخَالِدَة سَطَّرَ هؤلاءِ الأَبطالِ صفحاتٍ من النُّورِ في تاريخِنا المشرقِ.

وتحت تأثيرِ الضَّرَباتِ الموجِعَةِ والخَسائِرِ الكَبيرَةِ الّتي وقعت بالمعتدينَ، بَدأَت قُوَّاتِهم بالتَّراجُعِ، وتركت وَرَاءها قَتْلىٰ كثيرِين ومعداتٍ مُحَطَّمَةٍ.

وصلَ الجنديُ حسن إلىٰ الموقع بعد أن أَوصلَ الأَسيرَ إلىٰ القيادةِ، كما وَصَلَ معه رجالٌ مسلحون من أفرادِ الحرَسِ الوطني في القرىٰ المجاوِرَةِ. وَجاءتِ النَّجداتُ الصَّديقةُ إلىٰ الموقع المُهاجَم.

أَسرَعَ الجنديُّ حسن إلىٰ مَرْبَضِ الرَّشَّاش حَيثُ المساعدُ عبد البطل الَّذي أَذاقَ المهاجمينَ موتاً زُؤاماً، فَوَجَدَه وقد أَثْخَنَتْه الجِراحُ ودماؤُه قد نَزَفت وَحَوله صناديقَ الذَّخيرةِ وقد أَفْرَغَها من مُحْتوياتِها، لكثرة ما قَذَفَ منها علىٰ الأعداءِ وهو ورفاقُه وكانَ فيه بَقايا نَفَسٌ، فضمَّه الجنديُّ إلىٰ صدرِهِ وكان يَذْرِفُ الدُّموعَ عليه، وعلىٰ الجنديين الشَّهيدين من حولِهِ.

نَظَرَ إليه البَطلُ وأَشارَ بعدمِ البُكاءِ، وقالَ: كَلماتَهَ الأَخيرةَ، قل لأمي أن أبنك اسْتَشْهَدَ وهو يَرْفَعُ رأسَكِ ورأس كل أبناءِ الوطنِ، وإنِّي أوصيها بألا تَبْكي عليَّ، ولا تَلْبسُ السَّواد، فإني مِتُّ وأَنا طَيِّبُ النَّفْسِ، وَقَتَلْتُ من الأعداءِ الكثيرَ، وَحَافَظْتُ علىٰ أرضِنا وموقِعِنا من المحتلينَ، فَأَبْلَغْ وَصِيَّتي الأَخيرةِ إلىٰ من أَحبني، وأن الوطنَ قد طلبنا وهو أَحقُّ بنا من كلِّ النَّاسِ أهلاً كانوا أم أَحِبَّةً.

وأَسلَم المساعدُ الرُّوحَ لباريها وهو يُرَدِّدُ شهادةَ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

تَجَمَّعَ كلُّ حيٍّ بَقيَ علىٰ أرضِ الموقعِ ومن وَصَلَ إليه بعد الهجوم،

وهم يَحْمِلون جثمانَ قائدِّهم البَطل الملازم أوَّل محمود فَوضَعوه إلى جانبِ جثمان البطل المساعد علي وتابعوا جمع الشهداء الأبطال وقد لفوهم بالأعلام العربية السُّوريَّة ووضعوا الورود والرياحين على جَثامِينهم.

أمَّا العريفُ قاسم الَّذي بقيَ حياً مع بعضِ أفرادِ الموقعِ قالَ: متحمساً وبصوتٍ جهوري وآثارُ المعركةِ باديةٌ عليه، وكَأَنَّه أَسَدٌ خَرجَ من قتالٍ شديدٍ، والجراحُ تملأُ جِسمه، أيها المقاتلون: إن البَطلين القائدين الملازم أوَّل والمساعد قد أَبليا في قتالِ الأعداءِ أَشدَّ البلاءِ، وكم تمنَّيتُ أن استَشْهد معهما ومع بقية الأبطالِ الَّذين ضَحوا بأرواحِهم على بِطاحِ هذا الحصنِ، وإنِّي أوصي كلَّ مقاتلٍ أن يَجْعَلهَما قُدْوةً له.

إنَّ قائِدنا الشَّهيدُ المساعدُ قاتلَ الأعداءَ كالأبطالِ مثل صولات خالد بن الوليد وعُقْبَةِ بن نافع وكل الأبطال العرب الَّذينَ حافظوا على الأرضِ العربيَّة وعزَّتها، لقد قاتلَ بكلِّ الأسلحةِ حتىٰ استنفذها فاستدارَ إلىٰ السِّلاحِ الأبيضِ واشتبكَ معهم يَنْحَرُهم، فحاولوا أَخْذَه حياً أسيراً ولكنهم فَشِلوا وَفَضَّلَ الموتَ على الأسرِ، وفدىٰ الوطنَ بروحِهِ.

وفي صباحِ اليومِ التَّالي للمعركةِ، طَلَعت الشَّمسُ على أَرضها وساحتها وكانت أَشِعَّتها تميلُ للحمرةِ من كثرةِ الدِّماء الّتي روت تُرْبَتها الطاهِرَةِ.

أما جُثَثُ الأعداءِ والَّذين صُرعوا بنيرانِ الأبطالِ الأَشاوسِ من جنود الموقعِ المُهَاجَمِ كالمُلازم المِقْدَام الشَّهيد محمود الدَّباس والمساعد البطل الشَّهيد علي والشُّهداء الأَبْرار والمقاتلين الآخرين من شُجعانِ الجيشِ العربي السُّوري ورجالِ الحرسِ الوطني من أبناءِ المنطقةِ، فقد سُحِبُوا بالجنَازيرِ والحِبالِ من قبلِ العَدوِّ وهي كثيرةٌ بقدرِ اشتدادِ المعركةِ وقوةِ المقاومةِ الكبيرةِ من مقاتلي الجيشِ العربيِّ البطل.

حضرت قواتٌ هندسيةٌ في قُواتِنا المسلحةِ وبدأت بِتَطْهيرِ أرضِ المعركةِ من الأَلغامِ والمتفجِّراتِ، وحملت المعداتِ والآلياتِ المُحَطَّمَةِ والسَّالِمَةِ من مُخلَّفاتِ العدوِّ في ساحةِ المعركةِ وَما أكثرَها ووضعتها في المتحفِ الحربيِّ بدمشق تخليداً للانتصارِ الكبيرِ في معركة تَلِّ النَّيربِ علىٰ الضِّفةِ الشَّرقيةِ لبُحيرةِ طَبَريَّا.

القرية الصامدة

في أَصيلِ نهارٍ جميلٍ، مالت الشَّمسُ نحوَ الغروبِ، وانعكَسَ نورُها المُصْفَرُّ علىٰ صَفْحَةِ الماءِ الهادِئَةِ كاللُّجينِ في بحيرةِ طَبَرِيَا الوَاسعةِ الرَّائِعَةِ، كانَ كلُّ شيءٍ جميلاً في هذه الطبيعةِ الخَلَّابَةِ، جِبَالٌ عاليةٌ شَامخةٌ تُشْرِفُ علىٰ بحيرةٍ مملوءةٍ بالمياهِ العذبةِ كالمرآةِ، ونَسائمٌ عليلةٌ تُنْعِشُ النُّفوسَ، ووِدْيانٌ وَسَواقي يَجْري فيها الماءُ الَّذي يُشَكِّلُ غُدْراناً زَاخِرَةً بالأَسماكِ الذَّهَبِيَّةِ، وأَشجارٌ خضراءُ مزهِرةٌ إنَّه فَصلُ الرَّبيعِ هناكَ يَفوحُ العطرُ فَيُنْعِشُكَ، العصافيرُ تُغَرِّدُ فَرِحةً بجَمالِ الطَّبيعَةِ الّتي تَأْخُذُ بالأَلْبَابِ فَتَراها تَرُوحُ وَتَجيءُ لِأَعشَاشِها فوقَ الأغصانِ، والنَّحلُ يَنْتَقِلُ من زَهرةٍ لِأُخرىٰ ليَجني العسلَ اللَّذيذَ والشَّهْدَ فيأكلُ منه النَّاسُ إنَّ فيه شفاءً وطعاماً هبةً من ربِّ العالمين.

كان المحتلون الصَّهاينةُ يَعْتَدون علىٰ الأرضِ والمياهِ العَربيةِ عندَ مَصَبِّ النَّهرِ في البُحيرةِ الوَادِعَةِ، لقَدَ مَرَّ عليها أَقوامٌ أموريونَ وكَنْعانِيون وفِلَسْطِينيون عرب، فكانت مَرْتِعاً للأقوامِ من أُصولٍ وأَنسابٍ عربيَّة، ومَهْداً ونَشاطاً للديانات السَّماويَّة وبها مَرَّ وأقامَ السَّيدُ المسيحُ واغْتَسَلَ في

مياهِها الطَّاهِرَةِ، وبنىٰ تلامِذَتُه علىٰ ضِفَافِها الشَّرقِيةِ في بلدةِ الكُرْسي أَوَّلَ كنيسةٍ في العَالَمِ، وما زالت مَعَالِمُها بادِيَةً حتّىٰ الآن، كما بنوا أَوَّلَ دير في بلدةِ فِيق، وَسُمِّيَتْ بلدةُ سْكُوفيا نسبةً إلىٰ أَسْقَفِيَّةٍ أُقيمتْ فيها منذُ القرنِ الأَوَّلِ للميلادِ.

كانت أصواتُ المَدَافِعِ والرَّشَّاشاتِ الثقيلةِ، تَتَفَجَّرُ عند مَصَبِّ النَّهرِ في البحيرة، وَأَخَذَ المُعْتَدونَ الصَّهاينة يُحاولون الوصولَ إلىٰ مَجْرىٰ النَّهرِ بآلياتِهم الثَّقيلةِ تَحميهِم الدباباتُ والمدافعُ والقُوَّاتُ العَدُوَّةُ، وهم يُريدون تحويلَ مَجرَىٰ النَّهرِ إلىٰ الأرضِ المحتلةِ حيثُ مُسْتعمَراتُهم ومَزارِعُهم وَمُدُنهم الّتي اغْتَصَبوها من العربِ في فلسطين، فَحَفَروا قَنَاةً للمياهِ تَصِلُ حتّىٰ النَّقَبِ لِسَرِقةِ مياهِ النَّهرِ.

وَتَقِفُ القُوَّاتُ العَرَبِيَّةُ السوريَّة تُدَمِّرُ كلَّ حَفَّارَةٍ أو آليةٍ تُحاوِلُ الاقترابَ من النَّهرِ بِقَصْدِ إكمالِ قَناةِ المياهِ المُخطَّطِ لَها مِن قِبلِ مؤتمراتِهم ويُريدونَ اغْتِصابَ الأرضِ والخَيراتِ العَرَبِيَّةِ.

وكانت المَعَارِكُ تَشْتَعِلُ يومياً حولَ البُحيرَةِ الّتي تُشارِكُ فيها كلُّ الأَسلحَةِ ثَقيلَةٌ وَخَفيفَةٌ بريّةٌ وبحريةٌ وجويّةٌ، والقواتُ العربيَّةُ السوريَّةُ كالطَّودِ الصَّامِدِ في وَجْهِ هذهِ الاعْتِداءاتِ ومحاولاتِ الصَّهاينَةِ لاغتصابِ الحُقوقِ العربيَّةِ، والمدفعيةُ السوريةُ تَدُكُّ المواقعَ المعَاديةَ والآلياتِ المُتَقَدِّمَةَ

وَتُعْطِبُها وَتُشْعِلُ فيها النيران فَتُعَطِّلُ عَمَلَها ومُخَطَّطاتِها وتهزمُ وَتَقْهرُ المُعْتَدينَ كُلَّ يوم.

لقد أَرسَلوا طائراتِهم القاذِفَةَ إلىٰ حيثُ المواقِع السورية والقُرىٰ العربيَّةِ الآمِنَةِ قصدَ الاعتِداءِ علىٰ أرضِها وَشَعبِها الصَّامِدِ.

لقد حَمَّلوها بالقنابلِ المُدَمِّرَةِ الّتي تَزِنُ كلٌّ منها خمس مئة كيلو غرام وأكثر، وما يَمْتَلِئُ بالموادِ الحارِقَةِ (النابالم) المُحَرَّمَةِ دوليّاً.

هاجَمَت هذهِ القاذفاتُ قريةَ شكوفيا الجميلةِ الوادِعَةِ علىٰ قِمَّةِ جَبَلٍ عالٍ تَتَطاوَلُ حتّىٰ تَصِلَ إلىٰ ارتفاعاتِ كَجِبالِ صَفَدٍ والجليلِ في فلسطين المحتلَّةِ.

كانت الصواريخُ والقَنابِلُ تَنْزِلُ علىٰ القَريَةِ وأَهْلِها من أسرابِ الطَّائِراتِ وهي تَقْصِدُ تَجَمُّعاتِ الأَطفالِ والنِّساءِ المسرعينَ إلىٰ حيثُ الملاجئ كي يتَّقُوا شرَّ هذهِ الطَّائراتِ وغَدْرِها.

وتَفَجَّرَت القنابلُ في بُيُوتِ القَرْيَةِ، وَتَحَوَّلَتْ إلىٰ كُتَلٍ من اللَّهَبِ والنِّيرانِ حتىٰ الحِجارةِ السَّوداءِ البُرْكانِيَّةِ المَبْنِيَّةِ منها هذه البيوت تَحَوَّلَتْ إلىٰ شَظَايَا تَتَطَايَرُ فَتَقْصِفُ أَعمارَ النَّاسِ الآمنينَ أطفالاً ونِساءً وشُيوخاً.

ومما يُروىٰ أن الفلاحَ حسن، كان يَحْرثُ الأَرضَ في سهول القرية المتراسية. ورأىٰ القصفَ والنِّيرانَ تَشْتَعِلُ في البيوتِ ومنها داره الكائِنَة في

طرفِ البَلدَةِ الوادِعَةِ. فَأَسرع لِيَطْمَئِنَّ على أولادِهِ وعائلَتِهِ وأَقارِبِهِ وَجيرانِهِ، وكانت تتراءىٰ أَمَامهُ صورٌ كثيرةٌ ويدعو رَبَّه لهم بالسَّلامة.

ولما وَصَلَ وَجَدَ مَنْظَراً رَهيباً، نيراناً ملتهبةً، أشلاءً مُتَفَحِّمَةً، رائِحَةَ بارودٍ، وَدَماراً يَنْتَشِرُ في ساحةِ القريةِ، والنَّاسُ مَكْلُومون، منهم من يُسْعِفُ الجَرْحىٰ، وَمنهم من يُلَمْلِمُ أَشلاءَ القَتْلىٰ وَيَلُفهُم بِرداءِ الموت. وطائراتُ العدوِّ المجرم ما زالت في أجواءِ القريةِ تلاحقُ بنيران رَشَّاشاتها كل من يتحرك لنجدةِ الجرحىٰ.

رأىٰ الفلاحُ حسن بيتَهُ مُتَهَدِّماً فوقَ رأسِ زوجَتِه وأَبْنَائِه والحجارةُ والتُّرابُ من فوقِهم أَكوامٌ، أسرعَ وقد حَمَلَ الرَّفْشَ والمِعْوَلَ ليحفرَ علىٰ فَلَذاتِ كَبِدِهِ وأم أولادِهِ. وَفَجْأَةً سَمِعَ عَويلاً من الطَّرَفِ الثَّاني في داره، ونِداءَ استِغَاثَةٍ من زوجةِ العسكريّ الَّذي اسْتَأْجَرَ مَسْكَناً في دارِهِ.

أَسرعَ إليها وبَدأَ يَحْفِرُ وَيَكْشِفُ الأنقاضَ عنها وعن أولادِها الصِّغَارِ، إنَّها الشَّهامَةُ والمروءَةُ فقد آثَرَهم على عائلتِهِ وأنقذَهُم أولاً وهو الملهوفُ المُحتاجُ لِمَن يُساعِده في إنقاذِ زوجَتِهِ وأولادِهِ.

وبعد أن أنقذَ جارَته وابنيها وَفَرِحَ بسلامتهم سَمِعَ صوتَ أبنائِهِ فركضَ نحوهم وصارَ يَحْفِرُ في يَدَيهِ ومِعْوَلِهِ وَيزُيحُ من فوقِهم ما تَهَدَّمَ وَغَطَّىٰ أجسادَهُم الطَّاهِرَة، وهو يُنادي يا ولدي إبراهيم، يا أم

صالح.....!

وبعد جُهْدٍ وَعَناءٍ وحُزنٍ ودُموعٍ وآهـاتٍ وصُرَاخٍ، وَتَعَـاوَنَ الجميـعُ من أهـلِ القريـةِ كـي يُلَمْلِمـوا جِراحـاتِهم وأحـزانَهم وأشـلاءَ قَـتْلاهُم المُتناثِرَة، وتَحْتَ الأنقاضِ وَجَدَ أمَّ صالحٍ وقد حَنَا عليها جِسْرٌ من خَشَبِ الحَوْرِ وَحَمَاها من المَوتِ المُحَقَّقِ وَأَخْرَجَها وَقَد كُتِبَت لها الحَياةُ.

أمّا ابنه إبراهيم فكانَ جُثَّةً هامِـدةً، وكِتـابُ القِـراءَةِ للـصفِّ الرابـعِ الابتدائيِّ بينَ يَديهِ!

وبَحَثَ في لَوعَةٍ عن الطِفْلَةِ الرَّضـيعِ الّتـي كانـت تَرْقُـدُ بِمَهْـدِها في سريرٍ خَشَبيٍّ حيثُ صَارَ لها نعشاً ومثوىٰ.

أما رفاقُ الطِّفلِ إبراهيم فقد أَبَنُوهُ عِندَ افْتِتاحِ المَدْرَسَةِ بعدَ العـدوانِ، وقرأوا الفاتحة علىٰ روحه الطاهرة وَوَضَعوا الوُرودَ عـلىٰ قَـبْرِهِ وَقَـبْرِ بقيَّـةِ الشُّهَدَاءِ الاثني عشر.

وَعَلَّقَ رِفَاقُـهُ في صَفِّهِ المدرسيِّ صُـورَتَه الجميلـةَ مُوشَّـحَةً بِـالعَلَمَينِ العَربيِّ والسُّوريِّ.

وفي المساءِ وعندَ الغروبِ وقد صَبَغَت الشَّمسُ الجِبَالَ ومياهَ البحـيرةِ باللونِ الأصْفَرِ، والحُزْنُ يَلُفُّ الدنيا كُلَّها، حتىٰ العصافيرُ الّتي كانت تَمْلأُ القريةَ بِزَقْزَقَاتِها وأَغَاريدِها عندما تأتي لتَبيتَ في أَعْـشَاشِها فـوق أغـصانِ

القراءة
الصف الرابع

الأشجارِ.

نامت القريةُ تلك الليلةِ وهي تَحْتَضِنُ شُهَدَاءَهَا وجَرْحَاهَا، ومنهم من أُرْسِلَ علىٰ عَجَلٍ من الجَرحَىٰ المخطِرين إلىٰ مَدينةِ القُنيطِرَةِ وَمَشْفَاها الحَربيّ.

لَمْلَمَتِ العجوزُ أُمُّ مُصطَفىٰ أَشْلَاءَ ابنِها الشابّ في أحضانِ ثَوْبِها وهي تَصِلُها مع بَعْضِها وَتَحْنو عليها فَأَمْضَت الليلةَ تُأَبِّنُ وَلَدَهَا وَتذْرفُ دُموعَها فَتَغْسِلُ وجهَ ابنِها الشَّهيد بهذهِ الدُّموع. أمَّا أبو غالب فكانَ في مدينةِ دمشق، يَشْتَري بعضَ الثِّيابِ لأَولادِه ومنهم طِفْلَهُ الشَّهيد محمد الَّذي تَرَكَه في مدرسَتِه في القرية. وَفَجْأَةً وبعد الغَدَاءِ عِنْدَ أبناءِ عُمُومَتِه المقيمينَ في العاصِمَةِ حيث يَعْمَلون موظَّفين فيها، أَصَرَّ علىٰ الرُّجُوعِ إلىٰ القَرْيَة في نفسِ اليومِ الَّذي جاءَ فيه، رَغْم إلحَاحِ مُضيفِيه عليه للمبيت عندهم، وَحَمَلَ أَمْتِعَتَه وفيها ثيابٌ لابنه الشَّهيدِ الَّذي مازال في أَكْفَانِهِ ولم يُدْفَنْ بَعد، وكأنَّ قَلْبُه قد أوحىٰ له بما حَدَثَ، وسارع ليرىٰ ماذا جرىٰ في القرية، ولما وصل بعد طول تَفْكيرٍ علىٰ مدىٰ مَسافةِ الطَّريقِ الّتي تَرْبو علىٰ مِئَةِ كيلو متر، فَوَجَدَ المُصيبَةَ قد حَلَّت وابنَه الأصغر قد أَصبَحَ في عدادِ الشُّهداء، فَسَلَّمَ أَمْرَهُ لله وهو الرجل الصَّبورُ المؤمن بِقَضاءِ الله وَقَدَرِهِ.

بَحَثَ الناسُ عن العَمِّ أبو فوزي فلم يَجِدوه، بل وَجَدوا جُثَّةَ ابنِه

حسين وَيَدهُ مَمدودَةٌ تُشيرُ إلىٰ حيثُ تَرْقُد جُثَّةُ والدِهِ تحتَ الأنقاضِ. فَحَفَروا عِدَّةَ ساعاتٍ طويلةٍ شاقةٍ عندما ظهرت لهم الجُثَّةُ بجَسَدِهِ الطَّاهِرِ وهو يَرْفَعُ سَبَّابَتَه وقد رَدَّدَ: شهادةَ أن لا إله إلّا الله..... وهي آخر كلماته.

أما أبناءُ الشهيدِ أبو هاني، الذين كانوا يَتَحَلَّقُونَ حولَ جُثَّتِهِ الطاهِرَةِ، وأُمُّهُم تؤبِّنه بكلماتِ الأسىٰ والحُزْنِ والحَسْرَةِ، فقالت لهم: عليكم أن تُعاهدوه فتكونوا له رَحْمَةً وهو لكم قُدْوَةً، لأن الولد الصَّالِح يكون عند الله رحمةً لوالديه.

قالوا لها: سنكون كما رَبَّانَا علىٰ الإيمانِ وَحُبِّ الوطنِ، وسوف نَثْأَرُ له من الصَّهاينَةِ المعتدين ولكلِّ شهيدٍ من هذه القَرْيَةِ وغيرها من الوطن العربي.

حملَ شبابُ القريةِ الأسلحةَ والذَّخائِرَ إلىٰ الخنادِقِ و التحصيناتِ وكَمَنُوا في مَدَاخِلِها اتِّقَاءً ودفاعاً عن القَرْيَةِ جَنْبَاً إلىٰ جنبٍ مع الجيشِ العربيّ السوريّ تَحَسُّباً من وُقوعِ هُجومٍ آخر من عدوٍ غادرٍ لَئيم.

وعندما طلعَ الصَّباح حزيناً، وَبَدت الشَّمسُ مُصْفَرَّةً، تَتَدَلَّىٰ مِنْها خُيوطٌ كأَنَّها انْهِمَارُ دموعٍ غزيرةٍ من وَجْهِهَا الصَّبوحِ وهي تَبكي علىٰ أحبابٍ عَرَفَتْهُم كلَّ يومٍ في طلوعِها المُشْرِقِ وَهُم يَذْهَبون إلىٰ الحقولِ

والمدارسِ مُتفائلينَ بالحياةِ ويُرَدِّدُونَ في صَلَواتِهم أدعيةً لربِّ العالمين.

قالت النِّسْوَةُ: إنَّهُ يومٌ كئيبٌ حزين بدت الدنيا فيه مُوشَّحَةً بالسَّوادِ، وكأنها تُؤَبِّنُ الضَّحايا وَتُعَزِّي أَحِبَّاءَها الَّذينَ يَفْرَحون كلَّ يومٍ بالحياةِ ويَتَطَلَّعون إلىٰ مستقبلٍ مِلؤُهُ الفرحُ والسَّعادَةُ.

سارَ الرِّجالُ حامِلين مَعَاوِلَهُم وَرُفُوشَهم ومعهم شيخُ القريةِ العَتيدِ، وهو يُصَبِّرُهم علىٰ المصيبَةِ، إنَّهُ قَدَرٌ مِنَ الله لا رَادَّ لَهُ وعلىٰ البشر المؤمنين أن يُسَلِّمُوا لِقَدَرِهِم.

وَصَلَ الجَمْعُ مَقْبَرَةَ البَلْدَةِ وَبَدأوا بِحَفْرِ قبورٍ لأبنائِهم وإخوتهم الشهداءِ، إنها تُرْبَةٌ بِلونِ الحِنَّاءِ ولها رائِحَةٌ كالبُخُورِ تملأُ المكان، فلما حَفَروا ثلاثةَ عشرَ لَحْدَاً جاؤوا بأجسادِ الشُّهَداءِ مروراً أمامَ حارِسِ الثَّكَنَةِ العسكريَّةِ الَّذي أدّىٰ لهم التَّحيةِ العسكريَّةِ بسلاحِهِ الحربيِّ وهو يَتَنكَّبُه علىٰ كَتِفِهِ.

وَبعدَ أَنْ دَفَنَ النَّاسُ شُهَدَاءَهُم، وَوَاروهُم الثَّرىٰ وَقَفَ الشَّيخُ (محمود) يُؤبِّنُهم ويَدْعو لهُم ولجميعِ الشُّهَداءِ بالرَّحمَةِ وللناسِ بالسُّلوانِ والصَّبرِ.

زَرَعَتْ الأمهاتُ علىٰ قُبورِ أبنائِهِنَّ أغراسَ الريحَانِ وَرَوَيْنَها بدموعِهِنَّ، وكانت الأُخْرَياتُ يُصَبِّرْنَهُنَّ علىٰ المصيبة وأنهم أحياءُ عند

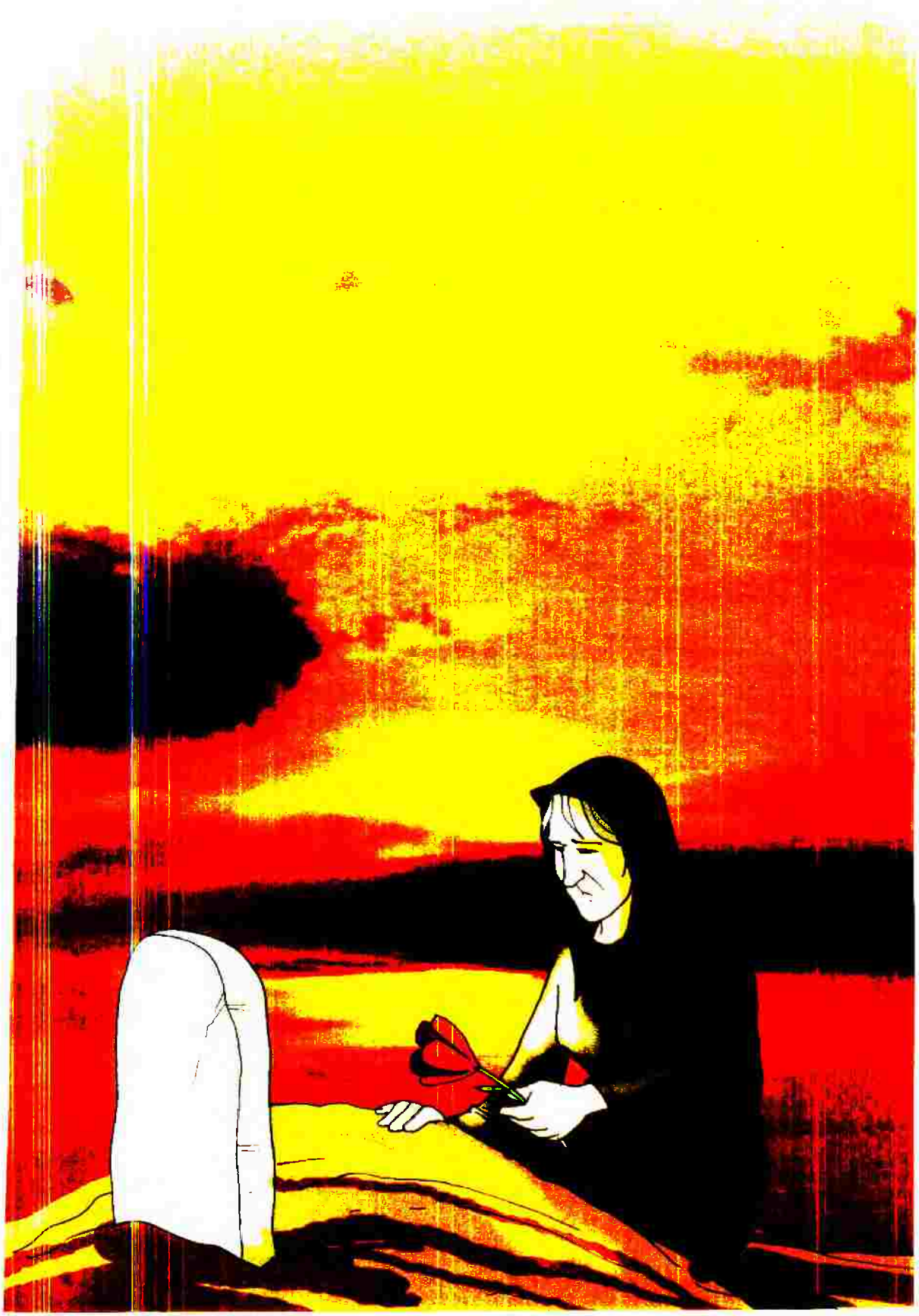

ربِّ العالمين.

فما أكثرَ المصائِبَ والمَجازِرَ في وَطَنِنا العربيّ، الَّذي ابتُلِيَ بالأعداءِ والمُحْتَلِّين الطَّامعين في خَيراتِهِ وَمَوقِعِهِ وسِحْرِهِ وجَمالِهِ، على مرِّ السِّنين.

وفي كلِّ يومٍ مدينةٌ أو قَريَةٌ مَنْكُوبةٌ في العراقِ أو فلسطين وغيرهما كَلُبنانِ والجولانِ.....

ويبقىٰ الشَّبابُ والرِّجالُ حتَّىٰ النِّساءِ والوِلدان، هم الضَّمانَةُ القَوِيَّةُ في نَصْرِنا علىٰ هؤلاءِ المُحتَلِّين، ولنا أكبرُ مثالٍ أطفالَ الحجارةِ في فلسطين الحبيبةِ وهم يَهْزِمونَ الغزاةَ بِدَبَّاباتِهم ومُجَنْزَراتِهم وَمَعَدَّاتِهم المُتَطَوِّرَةِ. وكذلك أبطال المقاومة الشجعان في جنوبِ لبنان الذين هَزموا الأعداءَ شَرَّ هزيمة، ورفعوا رايات النَّصرِ فوقَ روابي الجنوب وجَبَل الشيخ الأشمّ وَمَرَّغوا سُمْعَةَ الجيش الصّهيونيّ الّذي لا يُقْهَرُ بالوَحْلِ بإمكانيّاتِهِم القِتاليّةِ الخفيفة التي لا تُقاسُ بقوَّة جيش العدُوِّ المُتطوِّرَةِ.

الشيخ يتحدى المحتلين

دَخَل الغزاةُ القريةَ الوادِعَةَ الرَّابِضَةَ كالطَّودِ على قِمَّةٍ في مُرْتَفَعاتِ الجولانِ. وهي تُشرِفُ على بحيرة طَبَرِيَّا الجميلة، ومن خَلفِها جِبالُ صَفَدَ وطَبَرِيَّا وَحِطِّين والجليل وكأنك أمامَ مرأىٰ بَانورامِيٍّ يَأْخُذُ بالألباب.

أذاعَ المحتلون الصَّهَاينَةُ إعلاناً للسُّكَّانِ كي يتَجَمَّعوا في ساحةِ القريةِ، ولما جاؤوا رجالاً وَنِساءً وأطفالاً وقد خَيَّمَ الوُجُوم عليهم وَسادتَ الرَّهْبةُ والغَضَبُ في نفوسِهِم وهم يَرونَ عَدُوَّهم الَّذي اغْتَصَبَ أرضَ فلسطين عام (١٩٤٨) وَنَكَّلَ بِأَهلِها وَذَبَحَ كثيراً منهم في قِبيَةَ ونَحَالين ودِير ياسين وغيرها من قرىٰ فلسطين الحبيبة.

كما أن دِماءَ أَبنائِهم وإِخوانِهم وأَهلِيهم، الَّذين قَتَلَتْهم طائراتُ الصَّهاينَة قبل شهرين تقريباً في (٧ / ٤ / ١٩٦٧)، ولم تَجِف بَعْدُ هذه الدِّماء قال الشَّيخُ الكهلُ سعيد: ماذا يفعلون بنا هل يَقْتُلوننا أم يُرَحِّلونَنا كما رَحَّلوا وَشَرَّدوا أهلَ فلسطين. إنهم قساةُ القلوبِ هَمَجيّونَ يحقِدونَ علىٰ كُلِّ البَشَرِ، وليسَ عندهم عهودٌ ولا مَواثِيقٌ.

جاءَ قَائِدُهم علىٰ سَيَّارةٍ عسكريةٍ، وكان يَضَعُ علىٰ رَأْسِه قُبَّعَةً واسعةً

ومن حولِه جنودٌ يَحمِلون الرَّشَّاشاتِ وأَصَابِعُهم علىٰ الزِّنَادِ خوفاً من الحَشْد الأَعْزَلِ من السِّلاحِ، أَخذوا كُلَّ شَابٍّ وَرَجُلٍ بَعدَ أن صَفُّوهُم صَفاً طويلاً من أَعمارِ الثانيةِ عشر حتىٰ الخمسين، وَعَصَبُوا علىٰ عيونهم وَحَمَّلوهم بالسَّيارات العَسكَرِيَّة المُغْلَقَةِ، وكانوا يضربونَهُم بأَعقابِ البَنَادِقِ، والنِّساءُ والأطفالُ يَبْكونَ علىٰ هؤلاء الرِّجَالِ من المصيرِ المجهولِ الَّذي يَنْتَظِرُهم في سجونِ العَدوِّ الَّذي لا يَرْحَمُ.

زَجَّ المُعْتَدونَ الرِّجالَ الأَسْرىٰ في شَاحِنَاتٍ عَسْكَرِيَّةٍ وَهم معصوبو الأَعينِ ومَرْبُوطَةً أَيديَهم وَأَرجلَهم يَنْهَرونَهم ويَضْرُبُونَهم ويَرْمونَ بهم علىٰ أَرضِ الشَّاحِناتِ بكُلِّ حقدٍ واستكبارٍ.

وكانَ بينَ الأَسرىٰ أبو فيصل ابن القَريةِ بين رِفَاقه المعتقلين وهم في عُمرِ العشرينات والثلاثينات فَتَشَجَّعَ الرَجلُ في تلك اللَحظَةِ الحَرِجَةِ والمُخِيفَة ورَفَعَ صَوتَهُ الجَهوري قائلاً (أينَ حقوق الإنسان الَّتي أَقَرَّتْها الأُمَمُ المُتَّحِدَة، أينَ مُعَاهَدَةِ جنيف الَّتي تَضْمَنُ سَلامةَ المَدَنيين أثناءَ الاحتلالِ).

و عندها تَوَقَّفَ المعتدونَ عن أَعْمالهم وتَشَاوَروا فيما بينهم وتقدموا منه وقال: قَائدُهم لأبي فيصل أنت من ضُبَّاطِ الجيشِ السّوري وهذا يَظْهَرُ عليكَ من كَلامِك وَجَسَدِكَ القويِّ وَمَعْرِفَتِكَ بالقوانينِ الدَّوليةِ.

فقالَ لهم: أنا رَجُلٌ مَدنيٌّ أَعْمَلُ في البِناءِ وَنحنُ نُعْرِفُ قوانينَ الأُمَمِ المتحدة وَنَحْتَرِمُها ونَتَعامَلُ مع الشُّعوبِ بالاحترامِ المُتَبادَلِ لا كَما تفعلونَ أنتم تَقْتُلونَ البَشَرَ وَتَحْتَلُّونَ أَرْضَهم وتَسْتَبيحُونَ حُرُماتِهم وأعْراضَهم.

أَمرَ المعتدون بَقيةَ الحشدِ من الرِّجالِ المسنينَ والنِّساءِ والأطفالِ بالمسيرِ نحو الشَّرقِ في دَرْبٍ طويلةٍ مليئةٍ بالقَتْلى والقَنابِلِ الّتي لَمْ تَنْفَجِرْ. وفيها الكثيرُ من الحُفَرِ والآليات المُدَمَّرَةِ.

كانت الحقولُ حولَ الطَّريقِ مَزْروعةً بالقمحِ الّذي يَتَطاوَلُ مَزْهوٌ بِسَنابِلِه اليانِعَةِ في شهرِ حُزيران، هذا الشَّهرُ المِعْطاءُ للخَيراتِ فالزَّرعُ بدأَتْ عُجالاته تُحْصَدُ والبُقُول أَصبحَ أكواماً على البَيادر، والخِرافُ ترعى وتعودُ مُمْتَلِئَةً، والبَقَرُ والبَهائِمُ والماعِزُ والجواميسُ قد أُمتلأتْ ضُروعُها بالحليبِ الشَّهيِّ الطَّيبِ، أما الدَّجاجُ فكانَ يَتَقاطرُ إلى البَيادرَ وَوَراءَه أَسرابٌ من الصَّيصانِ الّتي تُزَقْزِقُ فَرِحَةً بِما تَجِدُه من وَافرِ الحَبِّ في الدَّربِ إلى الحقولِ المَنْقولِ للبَيْدَرِ، أما النَّحالونَ فَملؤوا الجِرارَ بالعَسَلِ الطَّازَجِ اللّذيذِ، وأَكلوا وأَطْعَموا النَّاسَ من شَهْدٍ شَهيٍّ مَمْزُوجٍ بالسَّمْنِ أو الزُّبْدَةِ إنها البلادُ الّتي تَزخَرُ بالخيرِ العميم.

يالها من أيامٍ عصيبةٍ هذه الّتي تَمُرُّ علينا، قالها الحَاجُّ سَعيد ذو الهيبَةِ والوَقارِ وعمرُه فوقَ التِّسعينِ، كيفَ تَسَلَّطَ علينا هؤلاءِ الأَشْرارِ، ونحنُ

آمنين في بُيُوتِنا وعنَدنا أَرْزَاقُنا وأَشْجَارُنا وَماشِيتُنا وديارُنا مليئَةٌ بالخيرِ والبَركات.

سارَ الجَمْعُ حزيناً في الدَّرْبِ العَاثِرِ ومنهم من يَحْمِلُ فِراشاً ولِباساً وزاداً أو أثاثاً أو طِفْلاً رَضيعاً أو رَجُلاً عَليلاً عَلىٰ الدَّوابِ أو الأَكتافِ والظُّهُورِ، إنها المُصِيبَة إنه النُّزُوحُ الرَّهيبُ المَفْروضُ بِقُوَّةِ السِّلاحِ.

أَمَّا الصَّهاينة الغُزاةِ فقد رَافَقوهُم مُهَدَّدينَ مُتَوَعِّدينَ مَنْ يُفَكِّرُ بالرُّجوعِ أو حتىٰ النَّظَرِ إلىٰ الخَلفِ.

لكن الشَّيخَ الكَهلَ سعيد استدارَ رَاجعاً إلىٰ دَارِه في بُسْتَانِه علىٰ أَطرافِ قَريتِهِ (سْكُوفيا) ولم يَرْضَخْ لتَهديداتِهم، كان يَهُمَّ بالسَّيرِ حتىٰ لا يرونه وأما ظَهْرُه فَأصابَهُ الحَدَبُ وَيَتَكِئُ علىٰ عصاهُ لِتكونَ رِجْلَه الاحتياطية الّتي تُعينُه علىٰ التَّوازُن و.....

وَصَلَ دارهَ وَحيداً في القَرْيَة ومعه كَلْبُه الأمين وَحَوْلَه بَقَراتَه ومواشَيه وَدَواجِنَه وفي زَاويةِ بُستَانِه كَوْمَةٌ من خَلايا النَّحلِ، فأَخَذَ دلواً وَبَدَأَ يَنْضَحُ الماءَ من البِئْرِ الموجودِ في دُوَّارِه ويْملأُ جَابيةً لِتشربَ هذهِ الحيوانات.

وَبَدَأت الدَّوابُ في القَرْيَة تَصِلُ إلىٰ حيثُ يَتواجَدُ لأَنَّها لم تَجِدْ من يَسْقيها وَيُطْعِمُها، حتىٰ القِطَطُ والكِلابُ كانت تَلْجَأُ إليه في أَخْذِ نَصيبِها من الماءِ والخُبزِ.

كان يَعْجِنُ ويَخْبِزُ على صَاجِهِ وَيُطْعِمُ هذه الحيوانات ويَسْقيها من بِئْرِه الرُّوماني.

مَرَّتْ عليه أيامٌ وليالٍ وهو وحيدٌ في القَريَةِ إلّا من بَعضِ المُغامِرين من أَبْنَائِها المُبْعَدين الَّذينَ يَتَسَلَّلونَ إليها ليلاً عبرَ الحدودِ البَعيدَةِ على دَوَابِّهم أو رَاجِلين، كي يَأخُذُوا بعضَ مَا تَركوا من أمتعةٍ وأموالٍ أو أَغذيَّةٍ كَجرارِ السَّمْنِ والعَسَلِ والزَّيتِ وغيرِها إذ كانوا يَمُرُّونَ بالشَّيخِ فَيُقَدِّمَ لهم الماءَ والطَّعامَ الَّذي يَطْبُخَه والخُبْزَ الَّذي يَصْنَعُه وَيَشْوِيه على صَاجِه، فَيَسْتَأنِسُ بهم وَيَطمَئِنون عليه وعلى دورِهم، وكُلُّهُم أَمَلٌ بأن العودَةَ إلى الدِّيارِ قريبةٌ، كما أَقَرَّ مجلسُ الأَمنِ الدَّوليِّ والهيئَةُ العامَّةُ للأُمَمِ المُتَّحِدَةِ بِقَرَاراتِها العَتيدةِ.

وَتَفاجَأ من قدوم وَلَدين يافِعينِ إلى أَطرافِ القَرْيَةِ المَنْكُوبَةِ فاستَغرَبَ الشَّيخُ حضورَهُما في وَسَطِ الأَخْطَارِ وَقُوَّاتِ الاحتِلالِ تَتَرَبَّصُ بِكُلِّ من يَدْخُلُ إلى المَنْطِقَةِ وَتُطْلِقُ عليه النَّارَ.

قال لهما: لماذا جِئْتُما والأَخطَارُ مُحْدِقَةٌ، والعَدُوُّ مُجْرِمٌ لا يَتوانى عن قَتْلِ أيِّ إنسانٍ يَحْضُرُ إلى هنا فَأَجَابَاه: جِئْنا لأَخْذِ قَطيعِ البَقَرِ الَّذي تَرَكْناه ولا يوجّد من يُطْعِمُه ويَسْقيه، وأَهْلُنا بحاجةٍ إليه فلا لَبَنَ ولا حَليبَ أو زبدَةَ أو سمنَ لديهم.

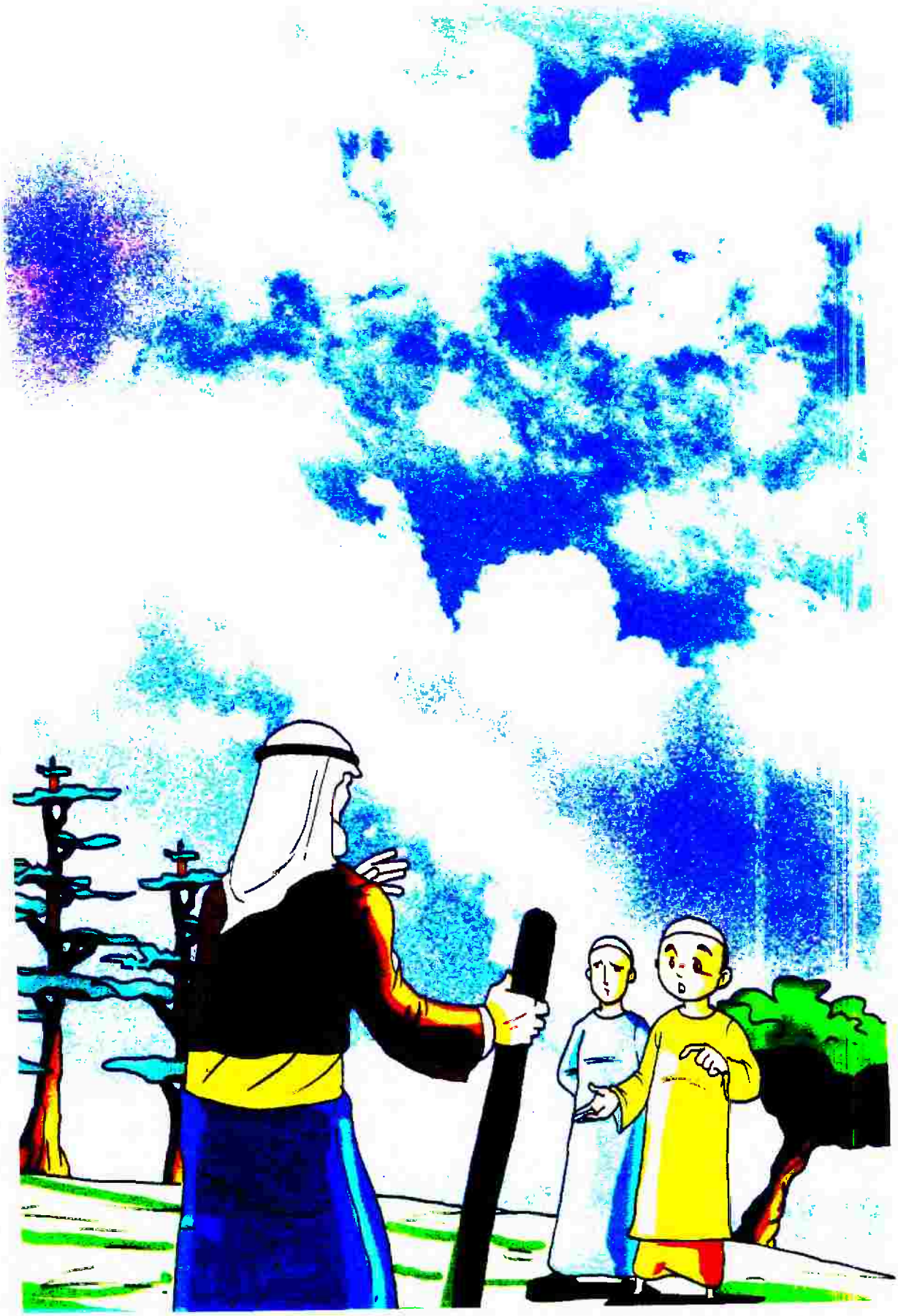

فَعَلَّمَهُما الشَّيخُ عن كيفية إخراجه والطَّريقةِ الّتي تُساعِدُهُما على ذلك، وأن يَتَجَنَّبا بِحذرٍ أماكنَ تَواجُدِ قوات العَدُوِّ المُحْتَلِّ، وكان هما خيرَ مُرْشِدٍ ومعينٍ على النَّجاةِ بِنَفْسيهما والقطيع عبرَ مَسالِكَ القريةِ والجِبالِ والوِدْيانِ المُحيطَة بها.

أَمَّا المحتلونَ فقد اكتَشفوا أَمرَ الشَّيخِ، وَانْدهَشوا من وُجُودِه وهم الذين أَخْلوا القَرْيَةَ وغيرَها من القرى المُجاوِرة من أيِّ إنسانٍ في حولها المحتل حول بحيرة طبريا وغيرها.

جاءَت إليه دوريةٌ على عربةٍ فيها جُنُود مُسَلَّحون وعلى رَأْسِهم ضَابِطٌ صهيونيٌ كبيرٌ فَأَخذوا وَضْعِيَّةَ القتَالِ، وَتَقَدَّموا إليه بِخوف، وَنَادُوا عليه أَنْ يَخْرَجَ من مكانِه وإِلَّا أَطْلَقوا عليه النَّارَ، وَهَدَّموا عليه الدَّارَ.

ولما خَرَجَ إليهم غيرَ هياب ولا وَجِلٍ، وقد هالَهم ما رأوا، شيخٌ مُسِنٌ قد حَنَتْ قَامَتَه السنونُ، يَتَّكِئُ على عَصاهُ لِتساعِدَه على الوُقوفِ والمَشْي.

قالوا له إرمِ سِلاحَكَ وارفعْ يَديكَ، فَضَحِكَ وأشارَ إلى عَصَاه مع أَنَّهُ لا يَقْدِرُ على تَركِها ولا يَستَطيع رَفْعَ يَديه، لَقَّموا عليهَ البَنَادِقَ والرَّشَاشَ، فَضَحِكَ ثانيةً وقال: أنا لا أَخَافُ، فَلَمْ يَبْقَ من العُمْرِ شيءٌ.

فأجابَ لا أَحَدَ عندي غيرَ كلبٍ هناك، كان يَنْبَحُهُم.

فتَقَدَّموا إليه بِكُلِّ حَذَرٍ، وَفَتَّشُوا الدارَ ثم تَرَجَّلوا وَجَلَسوا على

حَصِيرَةٍ بعدَ أن اطمَأَنُّوا فلا خَطَرَ منه.

قالوا لهُ: سوفَ نأخُذَكَ لِتُحاكَمَ في إسرائيل.

قال: وأيُّ جريمةٍ اقْتَرَفْتُ؟.

قالوا: لَقَد خَرَقْتَ القوانينَ، ولم تُنَفِّذَ أَوَامِرَنَا.

قال: أَيُّ أوامِرَ هذه؟!.

قالوا: بقيتَ هنا وكان عليكَ أن تُغَادِرَ هذه الأرض.

قال: لماذا أُغَادِرُها وهذه دَاري وَمُلْكي، وعِنْدي وَثَائِقَ بِتَمَلُّكِها، لقد عَمَّرَها جَدّي وأبي وَزَرَعوا فيها أشجارَ الزَّيتونِ واللوزِ والتّينِ والكروم، انظروا إليها إنها تَموتُ بدوني، فَمَنْ يَعْتَني بها إذا غَادَرْتُ؟

قالوا له: هذهِ أَصْبَحَتْ أَرْضَنا، لقد وَضَعْنَا أَرْجُلَنا فيها، فهي مُلْكَنا.

قال: بل هي مُلْكي من الأَجْدادِ والآباءِ.

قالوا له: إنَّكَ تُجَادِلُ ولا تَخَافُ.

قال: نعم أنا لا أخافُ، ولكني أقولُ الحقَّ.

أبلَغوهُ أخيراً أنهم سوف يُرَحِّلونَه كما رَحَّلوا أبناءَ المَنْطِقَة في الجولانِ.

وطَلَبَ الشيخُ منهم أن يَبْقىٰ، فهو لا يَتَحَمَّلُ الرَّحيلَ، وأنَّه قد تجاوزَ سنَّ التسعين، ويريد أن يموتَ ويُدْفَنَ في دارِهِ هذه.

تشاوَرَ الغُزَاةُ وكان رَأْيُهُم، أن يَعْرِضوا أمرَه علىٰ قَادتِهم، وكأن لَهم هَدَفاً من إبقائِهِ في القرية.

عادَ الغزاةُ إليه في اليوم التَّالي وأَبْلَغُوه، أن يَبْقَىٰ علىٰ شَرْطٍ يُفْرَضُ عليه.

قال: ما هو شَرْطُكُم؟.

قالوا: أن تُخْبِرَنَا عن أيِّ داخلٍ أو خارجٍ إلىٰ القَرْيَةِ.

ووضعوا عنده جهازاً، وعَلَّموه كيف يَضْغَطُ علىٰ زِرِّهِ عندما يُلاحِظُ أحداً من الفدائيّين أو المُتَسَلِّلِينَ.

أما هو الَّذي تَرَبّىٰ علىٰ حُبِّ الوطنِ والأهلِ، وآمنَ بالله وبالجهاد ضدّ المعتدينَ، وهو مَنْ شَارَكَ في حملاتِ المجاهدين في حوران وجبل الشيخ مع المجاهِدِ أحمد مريود ضد المستعمرين الفرنسيين، كما أنَّه شارَكَ مع أهل فلسطين عام (١٩٤٨) مع عددٍ من أهلِ المنطقة في مقاومة الاحتلال الصهيونيّ الغَاشِم.

فكيف له أن يَتَعَاوَنَ مع عَدُوٍّ ويُخْبِرَهم عن الفِدائيين أو الدَّاخِلين إلىٰ القرية لأخذ قُوتِهم وحَاجَاتِهم.

وبعد يومين عادوا إليه، وقد وَجَدوا آثاراً لقادمين إلىٰ دارِه، فقالوا له: لماذا لم تُخْبِرْنا عن هؤلاء الذين أتوا إلىٰ هنا خلالَ هذين اليومين؟.

فقال لهم: لم يَحْضُر أحدٌ، وإن هذه الآثار هي لحيواناتٍ شارِدَةٍ، ولكنهم لم يقتنعوا بما أجابهم.

وفي اليوم التّالي أحْضَروا سيَّارةً وحَمَلوهُ معَ أَمْتِعَتِه وَعَصَبوا عينيه وَرَبَطوا يَديهِ وأوصلُوه إلىٰ الحدود ورمُوه في الطَّريق وعادوا أدراجهم.

شاهَدَهُ أحدُ الرُّعاةِ، فَفَكَّ وِثَاقَهُ وَرَبْطَةَ عينيه وساعَدَه علىٰ النُّهوضِ والوقوفِ، فوجَدَه شيخاً هَرِماً لا يقوىٰ علىٰ تَحَمُّلِ هذا العَملِ الهَمَجِيِّ، فَحَمَلَهُ الرَّاعي علىٰ حِمارِه وكان يَنْظُرُ إليهِ وكأَنَّهُ سَبْعٌ هَرِمٌ أَضْعَفَتْ عَزيمَتَهُ السُّنون.

وَصَلَ الشَّيخُ سعيد إلىٰ أقربَ مَحطَّةٍ ورَكِبَ حَافِلَةً وَتوجَّهَ إلىٰ المدينة، حيثُ تَجَمَّعَ النَّازِحين من أقاربه وأهله، فاستقبله الجميعُ، وَحَمَدوا اللهَ علىٰ سَلامَتِهِ.

مَكَثَ الشَّيخُ عِدَّةَ أيّام، استراحَ واغْتَسَلَ واسْتَقْبَلَ أبناءَ قَريَتِهِ الَّذين وَفَدوا لِلتَّهْنِئَةِ بعودتِهِ سالِماً وكانوا يَسْتَفْسِرونَ منه عن أحوالِ قَرْيَتِهِم ودُورِهم وكُرومِهم ورِزْقِهم، وقد بَدَأَ القلقُ يساوِرَهُم، وهم الذين تَعَلَّقُوا بما صَدَرَ عن مَجْلِسِ الأمنِ الدوليّ من قراراتٍ والّتي نَصَّتْ صَرَاحَةً علىٰ عودَةِ الأرضِ المُحْتَلَّةِ عام (١٩٦٧) إثر عُدْوانِ الخامسِ من حُزيرانَ إلىٰ الوطنِ الأمِّ، وعودَة أهلها النَّازحين إليها.

قال لهما الشيخ سعيد: يا إخوتي ويا أهلي، هذا العَدُوُّ لـن يُعيـدَ لكـم شيئاً، وهو لا يهتم بأيَّـةِ قـراراتٍ للأُمَـمِ المتَّحِـدَة أو لغيرهـا مـن الـدول ويَطْمَعُ بالمزيد من الأراضي، لقد قالوها لي بِكُلِّ وقاحةٍ بأن لهم كل أرضٍ يَطَؤُونَها في هذه المَعْمُورَةِ.

وإني أقولُها بصراحةٍ وَوضوحٍ: (أن الَّذي أُخِذَ بالقُوَّةِ لا يُسْتَرَدُّ بِغيرِ القُوَّةِ، ولا يَفُلُّ الحديدَ إلّا الحديدُ).

وفي صباحِ اليومِ التّالي، جَمَعَ الـشيخُ أَبْنَـاءَهُ وأحفـادَه،وأخبرَهم: أنّـه يَنْوي العودَةَ إلىٰ القَرْيَةِ الّتي لا يطيق فِرَاقَها، ولو كَلَّفَهُ ذلك حَيَاتَهُ.

حاوَلَ الجميعُ أن يُثْنُوه عن قَرارِه الخطيرِ، وأنّـه لا يَقْـوَىٰ عـلىٰ تَحَمُّـلِ مَشَاقِّ السَّفَرِ إلىٰ البلادِ البَعيدَةِ في دُروبٍ خَطِيرةٍ خصوصاً أن هناك عـدواً يتربَّصُ بِكُلِّ داخلٍ إليها، وأنَّهم أنذروهُ بِأَلّا يعودَ إلىٰ القرية.

لم يَكْتَرِثْ الشَّيخُ بأحاديثهم ولم يُغَيِّرْ كَلامَهم مـن قَـرارِه بـالعودة إلىٰ الدِّيارِ.

حَزَمَ ما أستطَاعَ حَمْلَهُ من حَاجَاتِه الضَّروريَّةِ وسارَ مُتَّجِهَاً بـالقافِلَةِ إلىٰ حيثُ الخَطِّ الفَاصِلِ بين الأرضِ المُحتلَّةِ والقواتِ العربيةِ، وكان عليـه أن يقطعَ وادي الرَّقَّـادِ العميـق نُـزولاً وَصُـعوداً، بِحُفَـرِهِ وَطَيَّاتِـهِ، وقِلاعِـهِ وشَجَرِهِ، ومِياهِهِ المُتَدَفِّقَةِ في مسيلِهِ وغُدْرانِه، وعليه أن يَتَّقِي شرَّ وحـوشِ

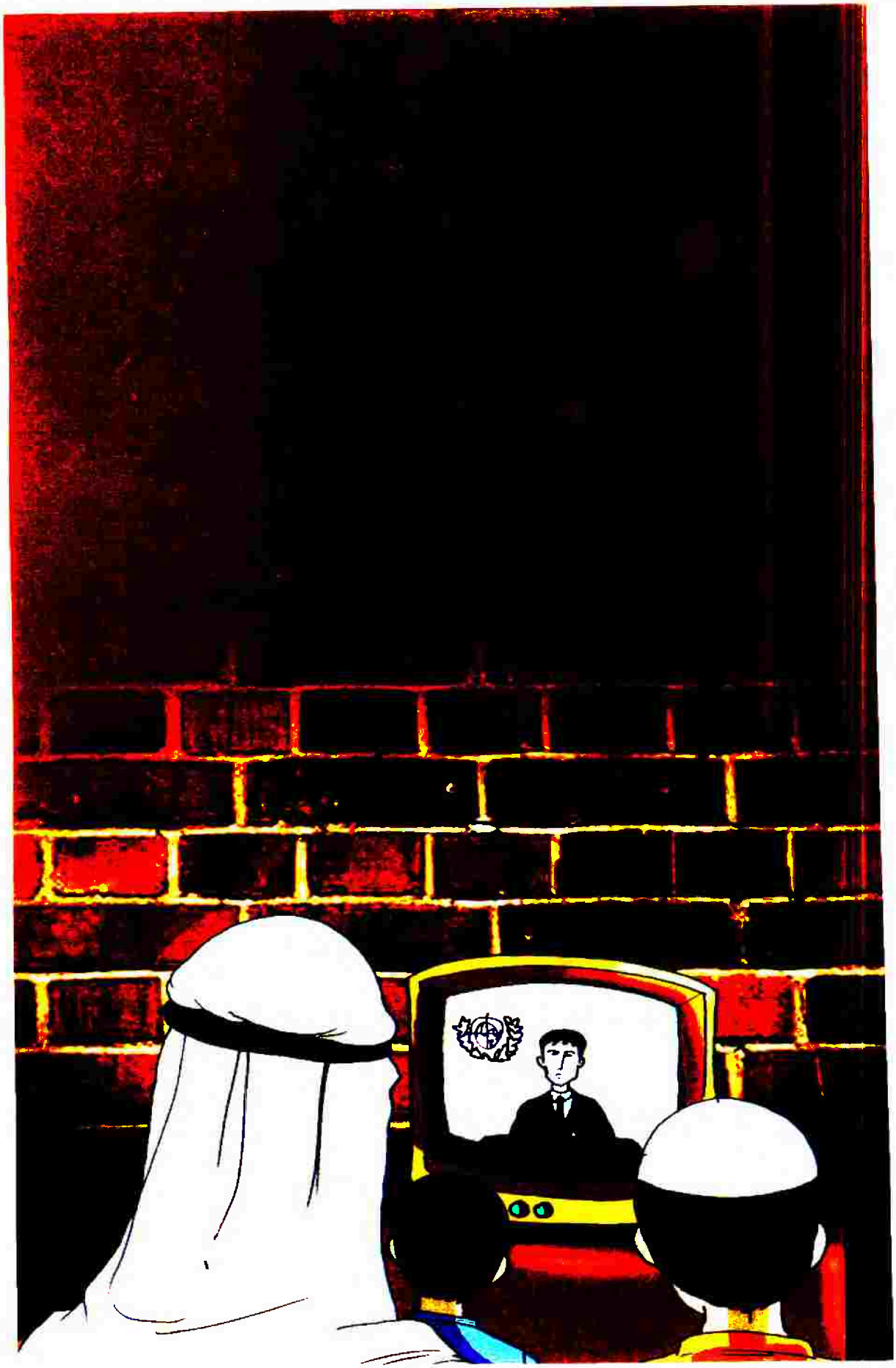

الوادي، والوحوشِ الآدَمِيَّةِ من الأعداءِ المحتلين. انتظر الشيخُ إلى حُلولِ الظَّلام ومعه ابْنَهُ الَّذي رَغِبَ في مُرافَقَتِهِ ليعينه في سَفَرِه الشّاقِّ. ولكنَّه رَفَضَ وَوَدَّعَه وَسارَ باتجاهِ مُبْتَغاهُ غيرَ هَيَّابٍ ولا وَجِلٍ.

لقد خَبِرَ الدُّروبَ كلَّها في المنطِقَةِ، وليسَ صَعْباً عليه أن يَصِلَ إلى هَدَفِهِ.

وَأَوَّلُ ما صادَفَهُ، ضَبْعٌ جَارِحٌ حاولَ افتراسَه، وقد رآهُ ضَعيفاً قد وَهَنَتْ عَزيمَتَه، فَوَجَدَ فيه قَلباً جَامِداً لا يَكْتَرِثُ له ولا لِحَيَاتِهِ المعروفَةِ عِنْدَهُ، وهو الَّذي قَتَلَ من هذه الوحوشِ الكثيرِ على مدى عُمْرِهِ المديدِ.

وَصَلَ إلى بطنِ الوادي، وَقَعَدَ على صَخْرَةٍ مَلْساء هُنَيهَةً، وأشعَلَ خِلالَها لِفافَةً مِنَ التَّبْغِ الَّذي كان يَزْرَعُه في كَرْمِه، وَتَقَدَّمَ إلى غَديرِ الماءِ فشَرِبَ وَغَسَلَ وَتَوَضَّأَ لصلاةِ الصُّبْحِ.

قَطَعَ الوادي إلى الجِهَةِ المُقابِلَةِ وَغَذَّ الخُطَا، فهو يُريدُ الوُصولَ قبلَ طُلوعِ الشَّمسِ حتى لا يَراهُ المُحْتَلُّونَ، وبعد ساعةٍ اقتربَ من الطَّريقِ المُعَبَّدَةِ، لقد شاهدَ دوريَاتِهم المَحْمُولَةَ تروحُ وتجيءُ عبرَ هذه الطَّريقِ، ولما أيقَنَ من خُلُوِّهَا منهم سارَ حثيثاً وَعَصاهُ تَنْقُرُ على الطَّبَقَةِ الزِّفْتِيَّةِ، ثم تَعَمَّقَ وَسَطَ الحقولِ المتروكَةِ دون حَصيدٍ، حَيثُ العدوانُ لم يُمْهِلِ السُّكَّانَ كي يَحْصُدوها، وما هي إلَّا ساعةً أو ما يزيد حتى وصلَ أطرافَ

قَرْيَتِهِ (سُكُوفيا) حيث دَارَهُ وَكَرْمَهُ، فَأَسْرَعَ كَلْبُهُ إليهِ مُرَحِّباً فَرِحاً مسروراً بعودتِهِ وكأنَّه كان يَنْتَظِرُهُ منذ مُغَادَرَتِهِ وَحَالُه تقولُ: لقد حَرَسْتُ لك الدَّارَ والطُّيورَ والنَّحلَ والدَّوابَ، وقَاتَلْتُ الوُحُوشَ الّتي هاجَمَتْنا في غِيَابِكَ، وَبدا عليه الضَّعْفُ وجُروحٌ من آثارِ المَعَارِكِ مع الوحوشِ، وكان قد جَمَعَ حَولَهُ مَجْمُوعَةً من كلابِ القَريَةِ للدفاعِ عنها.

تَوَجَّهَ الشيخُ باتجاهِ القِبْلَةِ وصلّىٰ شُكراً لله علىٰ وُصُولِه، ثم أَرْدَفَ رَكعاتِ الفَرْضِ والسُّنَّةِ لصلاةِ الصُّبْحِ.

وبعد أن اسْتَسْلَمَ للنومِ والرَّاحَةِ من عَنَاءِ السَّفَرِ المُجْهِدِ علىٰ رَجُلٍ كبيرٍ مِثْلَهُ.

أفاقَ علىٰ صِياحٍ من عجوزٍ آخر، كان الكَلْبُ يَنْبَحُ عليه، فَنَظَرَ إليه وإذا به أَحَدُ المُسِنِّينَ في القرية المجاورة، حيث كان يَتَوارىٰ عن أَعْيُنِ المُحْتَلِّين، وقد سَمِعَ عن الشَّيْخِ سعيد فَأَرَادَ الإلتجاءَ إليهِ، فَيَجِدُ عِنْدَهُ الماءَ والطعامَ، وهُو الذي لا يَرُدُّ سائلاً ويساعدُ المُحتاجَ ويُجيرُ الملهوف.

رَحَّبَ به ضَيفاً ولو أن الظُّروف صعبةٌ كي يُقَدِّمَ له ما يَحْتَاجُ الضَّيفُ، وقال: سوف نَتَقَاسَمُ ما تَيَسَّرَ من المَأْكلِ وأما الماءُ فهو يَمْلأُ البِئْرَ فِنِنْضَحُ منه ما نُريدُ.

تَفَقَّدَ الشَّيخُ نَحْلاتِه فَوَجَدَ الدَّبَابيرُ قد تكاثَرَتْ عليها، فأَصلَحَ

الشِّبَاكَ حَوْلَها حتىٰ لا يَصِلَ إليها الدَّبّوُر المؤذي، وَوَجَدَ بَقَراتِه عَطْشىٰ وقد هَزُلَتْ من قِلَّةِ الطَّعامِ فَقَدَّمَ لها التِّبنَ والعَلَفَ والماءَ، وأما دَجَاجَاتِه الجائعاتِ فَقد نَفَقَت الصِّيصانُ، وأُمَّهاتِها في حالةَ سَيِّئَةٍ، فأسعَفَها بِتَقديمِ الماءِ والعَلَفِ.

نَظَرَ الحاجُّ سعيد إلىٰ ضَيفه القادِمِ من حقلِ الأَلْغَامِ، وهو يُتَمْتِمُ في نَفْسِه: علىٰ إِكرامه، وقد اشْتَهَر دائماً بالكَرَمِ، فالعَسَلُ والسَّمنُ يُقَدَّمُ علىٰ مائِدَتِه للضيوفِ كما يُقَدَّم الخبزُ والقهوةُ والشَّايُ.

أَمْسَكَ الشَّيخُ بديكٍ من بينِ دَجَاجَاته، وذَبَحَهُ وَهَيَّأَهُ في قِدْرٍ مملوءٍ بالمَرَقِ الشَّهِيِّ، وبدأ يَعْجِنُ عَجِينَةَ الحِنْطَةِ لِيَصْنَعَ منها خُبْزاً الذيذاً.

كان صاحبُه وضيفُه يَغُطُّ في نومٍ عميقٍ بعد أن أَنِسَ من وَحْشَةٍ مُخِيفَةٍ بين الأَدْغالِ في الوادي القريب، وقد أنهَكَهُ الجُوعُ في الأيامِ الماضِيَةِ والّتي تَلَتِ الاحتِلالَ البَغيضَ.

تَغَدَّىٰ الشَّيخَانُ وَحَمدا الله علىٰ النِّعْمَةِ، وَصَلَّيا صلاةَ الظُّهرِ جَماعةً وَتَوجّها بالدعاءِ إلىٰ الله، أن يَكُفَّ أذىٰ المعتدين الصَّهاينةِ عن هذه الأَرضِ الغَاليةِ وَشَعْبِها الطَّيبِ الذي لا بد أن يعود إلىٰ أرضية وديارِه.

مرَّ عليهما عدةُ أيامٍ قَبلَ أن يَكْتَشِفَ المحتلونَ وُجُودَهُما وفي ذاتِ يومٍ لاحَظوا دُخَاناً يَتَصَاعَدُ من دار الحاج سعيد، فَأَسْرَعوا إليه فَوَجَدُوه مع

صَاحِبِه، وَتَعَجَّبُوا كيف رَجَعَ وهم الذين أَبعدوهُ إلىٰ الحُدودِ البعيدةِ، ولا تُوَجُد وسيلةُ نقلٍ تُعيُده إلىٰ هذا المَكانِ وهو الإنسانُ الهَرمُ الضَّعيفُ المَحْنيُّ ظَهْرُه والخَائِرَةُ قُوَاهُ.

فَتَحَ المعندون معه وصاحُبه تحقيقاً مُطَوَّلاً. وهم يَعْتَقِدونَ أن هناك من أَحْضَرَه إلىٰ هذا المكان.

لم يَتَوَصَّلوا معه رَغَم الشَّدةِ والعُنْفِ إلىٰ ما يشيرُ أنه مُرْسَلٌ وَمُحْضَرٌ من قبلِ جماعات الفِدَائِيين الذين أَقَضّوا مَضَاجِعَهم وَقَتَلوا مِنهم أعداداً كثيرةً.

وكيفَ يُحْضِرُ معَه رَجُلاً آخَر، فَرَدَّ عليهم بِكَلماتٍ قليلةٍ: وماذا نَحْنُ نُشَكِّلُ عليكم من خَطَرٍ؟ وأَنتم تَرونَ فينا عَجُوزينِ مُتَهالِكَينِ، لقد ارْتَبَطْنا هنا كالقَدَرِ ولا نَقْدِرُ علىٰ العيشِ في غيرِ هذه الأرض، دَعوا تُركونا فيها حتىٰ يَأتي أَجَلُنا وهو قَريبٌ فَيَدْفِنُ أَحَدُنا الآخر.

قالوا: حَضِّرا نَفْسيكُما غداً صباحاً نَحْملُكما إلىٰ حيثُ الحدود.

ناما تلك الليلة وفي الصَّباح الباكِرِ استيقَظَا ووَضَعَ الشَّيخُ الماءَ في الجابيَةِ للبقراتِ، وفي الأَوانِي وَالأَجْرَانِ للدَّجَاجَاتِ ولِلْكَلْبِ.

وَوَضَعَ مزيداً من الكَلأِ والتِبْنِ لها، كي تَكفيها أكبرَ مُدَّةٍ، ولما حَضَروا عَصَبُوا أَعْيُنَهما وربَطوا أيديهما، وحَمَلوهُمَا إلىٰ السَّيارةِ الحَربيَّة، البَنَادقُ

محشوةٌ ومَصَوَّبَةٌ إليهما.

وهناكَ في الطَّريق البَعيدَةِ وبعدَ مسيرةٍ طويلةٍ، رموا الشَّيخين عند حقولِ الألغام.

لم يَستطيعا التَّحرَّكَ خوفاً من انفجارِ الأَلغامِ بهما وَبقيا ساعاتٍ حتىٰ اكْتَشَفَ وجُودَهُما مَخْفَرٌ مُتَقَدِّمٌ من القواتِ الصَّديقَةِ، حيثُ عَمِلَ الجنودُ علىٰ تَخْليصِهما من حقلِ الأَلغام بسلامٍ، وأَحْضَروهُما إلىٰ أقربِ تَجَمُّعٍ سَكَنيٍّ، وَبَقيا في ضِيافةِ مختارِ القَرْيَةِ حتىٰ صَباحِ اليومِ التَّالي، وقد طَلَبا المُغادَرَةَ إلىٰ أبنائِهما في مُخيماتِ النَّازِحينَ في المَدينةِ.

تَعانَقَ الشَّيخانِ يُوَدِّعُ أَحَدُهُما الآخرَ، فَتوجَّه الحاج سعيد إلى حافِلَةِ دمشقَ والآخر إلىٰ درعا وكان وَداعاً مُؤثِّراً لكلِّ من حَضَرَه.

استقبلَ الأبناءُ والأحفادُ والأهلُ الشيخَ بحرارةٍ، وهَيَّؤوا له أسبابَ الرَّاحَةِ من شِدَّةِ ما عانىٰ في عودته وحَمَدوا الله علىٰ سلامته.

قالت ابنته: يا أَبَتي ما بَقي من العمرِ إلَّا القليلَ، فاسْكُنْ بيننا مُعَزَّزاً يُقَدَّمُ لك ما تَحْتاجُ.

قال لها: يا بنيتي، ونَتْرُكُ الدِّيارَ للغزاةِ المُحْتَلِّين سوف يَموتُ الشَّجَرُ ويَخْتَفي الزَّرْعُ والثَّمَرُ والنَّحْلُ والغَنَمُ والبَقَرُ، من يُطْعِمُ الدَّجاجاتِ ويَسقيها والحيواناتِ وغيرِها.

قالت: يا أَبَتي، كفاكَ كِبْرياءً، فأَنَّكَ تُغَامر بِحياتـكَ، إنهـم الـصَّهاينَةُ الظالِمونَ، فلن يَرْحَمُوك.

لقد أرادوا أخذَ البِلاد خاليةً من سُكَّانها، لذلك طَرَدونـا منهـا حتـىٰ تَخْلو لهـم لِيَسْتَوطِنوا بِهـا، إن وراءَهُـم قُـوَّةً عظمـىٰ تَـدْعَمُهم وتَمُـدُّهم بالسِّلاحِ والمالِ وَتَبْعَثُ الصهاينَةَ من كلِّ أَنحاءِ العَالَمِ كي يَنْهَبوا خَيرَاتِهـا، ألم تَذْكُر ما حَدَثَ في فلسطين قبـل نَكْـسَتِنَا بعَقْـدَين مـن الزمـان في عـام (١٩٤٨)؟ وكيف سَاعَدَتْهُم بريطانيا والـدُّوَلُ الاسـتعماريّةُ المُتـآمِرَةُ عـلىٰ وطنِنا وشعبِنا؟.

قال: اسكُتي ولا تَقْنَطي من رحمةِ الله.

سوفَ أعودُ إليها ولَن أخافَ منهم.

وسوفَ تَعودُ بلادي إلينا مهما طالَ الزَّمنُ وسَنُعَمِّرُها بالبِناءِ والـزَّرْعِ والشَّجَرِ.

وماتَ الشيخُ سعيد بعد أيامٍ عن عُمْرٍ يناهزُ المِئَةَ عـامٍ، وَوَجَـدُوه قَـد أَعَدَّ زُوَّادَتَه وحَزَمَ ثِيابَهُ في صُرَّةِ سفرٍ، وعَصَاهُ الغَليظَةُ مَرْبوطَةٌ إليها.

سارَ المُخَيَّمُ وراءَ جَنَازَتِهِ، ذاكرين صَبْرَهُ وأَمَلَهُ وعَزيمَتَه الّتي لم تُحْنِهـا السنون كما حَنَتْ ظَهْرَه وأنهت حياته.

وكان أبو عليّ مثالاً للـصُّمودِ والتَّحَـدِّي رغـمَ ضـعفِهِ وكـبر سـنِّهِ،

وصارَ مثلاً يُحتذى لكلِّ أهلِ القريةِ وشبابِها وشيبها وتتناقلُ سيرتَهُ كلُّ أبناء المنطقَةِ والبلادِ جميعاً.

تم هذا الكتاب بعون الله تعالىٰ

وفيه قصصٌ قليلةٌ، وَذِكْرٌ لِحوادث وبطولاتٍ من بعضِ ما حدث في هذا الجزء من الوطنِ العربيِّ الكبيرِ، الزَّاخر بأمثالِ هذه البطولاتِ والأحداثِ، والذي شَعَّ وَيشِعُّ نوراً علىٰ العالم من حولنا.

إن المُتَتَبِّعَ لتاريخ منطقتِنَا الغَاليةِ، يراهُ مملوءاً بما يَرْفَعُ رأسَ العربيِّ شُموخاً وفخراً وعزَّةً.

وإنَّ المتتبع لجغرافيَّةِ وطبيعةِ وثرواتِ بلدِنا يَجِدُها أجملَ الأراضي وأحلاها وأخصبها وأغْنَاها ثرواتٍ وكنوزاً.

لهذا يطمَعُ فيها الطامعونَ والمستعمرونَ فعلينا أَلّا نَهْدَأَ أو نَرْضَخَ أو نَسْتَسْلِمَ لِمُؤامَراتِهم مهما بلغت التضحيات وغلا الثمن.

المؤلف

هو ابن الجولان، من منطقة الزوية في الجهة الشرقية لبحيرة طَبَرِيَّا، ولد عام (١٩٣٨) في قرية سكوفيا الشامخة.

الفهرس

(مقدمة) ٤

وصف ٨

بلاد يسيل منها العسل ٩

طاقة النَّمِر ١٥

كَلْبَةٌ تَصْرَعُ النَّمِرَ ١٩

الزورق الحربي الصهيوني ٢٥

حقل الألغام ٣١

المحارب القديم ٣٧

هبت الريح الشرقية ٤٧

الشهيد البطل المساعد علي ٥١

القرية الصامدة ٩٩

الشيخ يتحدىٰ المحتلين ١١٢

المؤلف ١٣٥

الفهرس ١٣٦